العبير الشذي

في سيرة الملك العادل

نور الدين زنكي

تأليف

أبي إسحاق محمد بن أحمد الزويدة

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دار الكتاب العالمي

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1445هـ - 2023م

Step Ajans Matbaa Ltd.Şti

Göztepe Mah.Bosna Cad. No: 11 Bağcilar/Istanbul Tel:0212 46808426

Sertifika No:45522

النشر والتوزيع: دار الكتاب العالمي

عنوان دار الكتاب العالمي: تركيا ـ استانبول ـ العمرانية

Yamanevler Mah. Küçüksu Cad. Bildircin Sok. No: 9 Dükkan:1
Ümraniye / Istanbul

رقم الهاتف والتواصل:

00905397626695

bilgi@kureselkitap.com

www.Kureselkitap.com

المحتويات

العنوان	الصفحة
المقدمة	٣
أهمية قراءة التراجم والإطلاع على التاريخ	٩
اسمه ونسبه ووصفه	١٣
الثناء عليه	١٥
طلبه للعلم وعنايته بالعلم وأهله	١٩
زهده وتواضعه	٣١
جهاده في سبيل الله	٣٩
عدله	٥١
أهم أعماله	٦١
موجز لأهم المعارك والفتوح والأحداث	٦٧
وفاته ومراثيه	٨١
مفكرة الفوائد	٨٥

إضاءة

الإسلام لم ينتصر بقومية ولا قبلية[١]؛ وإنَّما انتصرَ بمنْ حملَ هَم الإسلامِ وإيصاله بصورتهِ الحقيقية.

فنظام الملك فارسي، ونور الدين تركي، وصلاح الدين كردي، ويوسف بن تاشفين بربري.

اختلفت أعراقهم، وتنوعت أعرافهم، وتباعدت بلدانهم، وتقاربت همومهم فخلد الله ذكرهم، واشتهر بين الناس خبرهم.

١- بل كانت الحروب بين القيسية واليمانية سبب الضعف والفوضى في بلاد الأندلس حتى جمع الله شملهم بالقائد والأمير عبد الرحمن بن معاوية ﷺ وصار للإسلام دولة بقيت قرابة الثمانية قرون.

المقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُ بهِ ونستغفرهُ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنَ لا إله إلا الله، وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١-٧٠]

أمَّا بعد: فإنّ أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي، هدي محمّدٍ ﷺ، وشر الأمورِ محدثاتها، فإنَ كلَّ محدثةٍ بِدعة، وكلَّ بِدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار: فهذا كتاب مختصر يحوي فصولًا ودرراً لترجمة الملك العادل نور الدين زنكي وسميته بـ«**العبيرُ الشذيّ**»، تعريفًا بشخصه،

وطمعًا بأن يكون في الأمة من يتشبه به ويستمسك بغرزه، وسيرته ﷺ كتبت فيها كتبًا، جلُّها مطولة، وبعضها مسطورٌ في بطون المجلدات كالتواريخ والسير، فأردت أن أجمع من تلك الكتب ما يتضمن الحديث عن سيرته[١] بالاختصار الذي لا يكون به الإخلال، ولا يحصل معه الإملال.

لي هِمَّةٌ فوقَ أعلى النَّجمِ منْزِلُها ... وفِكْرَةٌ حَارَ فيهَا مَنْ يُدَانِيها

إنْ كَانَ يُسْعِدُنِي دهرِيَ بخدْمَتِهَا ... فَسوفَ أُوضِحُ شيئًا مِنْ معَانِيهَا[٢]

فيا أيها الآباء، إنَّ الرب الذي رزق الأمة بنور الدين قادر على أن يرزق بمثله لمن له يُدِين؛ فجددوا النية، وشدوا العزيمة.

قال الإمام البخاري ﷺ في «صحيحه» (باب من طلب الولد للجهاد) وساق بسندِهِ، عن عبد الرحمن بن هرمز قال: سمعت أبا هريرة ﷺ:

١- وألحق في ذلك سير الفاتحين، والقادة العادلين، أمثال: صلاح الدين الأيوبي، فهو كما قيل في «خريدة القصر» (٢/٢٨٥):

إذا ابتسمتْ سيوفُ الهند يوماً ... فمَبْسِمُها يدلُّ على النّحيب

ولم يَذْخَرْك نور الدين إلاّ ... لتدفع عنه نائبةَ الخُطوب

وسار المظفر صلاح الدين على هذا الخطا، فكان نعم القائد الفاتح، والملك العادل. ومن بعده أترجم ليوسف بن تاشفين، وأبو يعقوب الموحدي، وصقر قريش عبد الرحمن الداخل، وعبد الرحمن الناصر، ومحمد بن أبي عامر، وسيف الدين قطز، وركن الدين بيبرس، وهارون الرشيد، وغيرهم مما ييسره الله لي، وهو الموفق المعين.

٢- مجمع الآداب في معجم الألقاب (١/٣٦٤).

عن رسول الله ﷺ قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام: «لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأةٍ أو تسع وتسعين، كلهنَّ يأتي بفارسٍ يجاهدُ في سبيل الله، فقال له صاحبُهُ: قلْ إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم يحمل منهنَّ إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، والذي نفسُ محمدٍ بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون»[١].

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: قال الزبير بن العوام: «إنَّ طلحة بن عبيد الله التيمي يسمي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أنْ لا نبي بعد محمد، وإني أسمي بني بأسماء الشهداء لعلهم أن يستشهدوا»[٢].

وعن الحسن يقال: إذا أتى الرجل أهله فليقل: «بسم الله، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، ولا تجعل للشيطان نصيبًا فيما رزقتنا»، قال: فكان يرجى إن حملت؛ أو تلقت أن يكون ولدًا صالح[٣].

ويقول أبو الحسن الماوردي في «نصيحة الملوك»: «وأن ينوي في ذلك كله نية الولد، وأن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وينوي في الولد؛ أنَّ

١- صحيح البخاري (٢٦٦٤)، وبرقم (٣٢٤٢)، ومسلم في «صحيحه» (١٦٥٤٩).

٢- الطبقات الكبرى لابن سعد (١٠٤٦٧)، وقال: فسمى عبد الله بعبد الله بن جحش، والمنذر بالمنذر بن عمرو، وعروة بعروة بن مسعود، وحمزة بحمزة بن عبد المطلب، وجعفرًا بجعفر بن أبي طالب، ومصعبًا بمصعب بن عمير، وعبيدة بعبيدة بن الحارث، وخالدًا بخالد بن سعيد، وعمرًا بعمرو بن سعيد بن العاص. قتل يوم اليرموك.

٣- مصنف عبد الرزاق (١٠٤٦٧).

الله لعله يرزقه من يعبد الله ويوحده، ويجري على يديه صلاح الخلق، وإقامة الحق، وتأييد الصدق، ومنفعة العباد، وعمارة البلاد»[١].

وهذا الكلام ينتفع فيه من يريد الفائدة، ومن لديه حرص على الاستفادة، وأما اللامبالي فليس له إلا أن يطالع فيه دون شعور بالغيرة، أو حرص على التشبه بمثلهم.

وَلا تُعْطِيَنَّ الرَّأْيَ مَنْ لا يُرِيدُهُ فَلَا أَنْتَ مَحْمُودٌ وَلا الرَّأْيُ نَافِعُهْ[٢]

وهذا الكتاب المختصر قد جعلته على أبواب وهي:

أهمية معرفة قراء التراجم والاطلاع على التاريخ.

اسمه ونسبه ووصفه

الثناء عليه

طلبه للعلم وعنايته بالعلم وأهله

زهده وتواضعه

جهاده في سبيل الله

عدله

أهم أعماله

موجز لأهم المعارك والفتوح والأحداث

١- نصيحة الملوك (ص٦٦).

٢- آداب الشافعي لابن أبي حاتم (ص٢١١).

وفاته ومراثيه.

اللهم تقبله وانفع به، واجعله حجة لي، وثقل به موازيني وموازين والديَّ وأهلي أجمعين، والحمد لله المنعم المتفضل أولًا وآخرًا.

إلهي لك الحمدُ الذي أنْت أهلُه ... على نعمٍ ما كنتُ قطُّ لها أهلا

إنْ زدت تقصيرًا تزدني تفضلًا ... كأنيَّ بالتقصيرِ أستوجب الفضلا[1]

١- قاله محمود الوراق كما في «المستطرف» (١/٥٠٨).

أهمية قراءة التراجم والاطلاع على التاريخ

إنَّ النَّاظرَ في تصانيفِ العُلماءِ في التّراجم والسِّيرِ، وكُتبِ الرِّجالِ، يدرك جليًّا أنَّ هذه التّصانيفَ لها بواعثُ وأسبابٌ كثيرةٌ، وأشهرُها وأنفعُها هو التّشبُّه بهؤلاءِ القومِ في صلاحهم، وعلمِهم، وجهادِهم، وصبرِهم، وفي كلّ أحوالهم، ممَّا يجعل لذلك أثرًا كبيرًا وبالغًا فيمن يأتي من بعدهم[١]. وقد أشار ابن خلدون لذلك في «تاريخه» بقوله: «البشرُ يأخذون معارفَهم وأخلاقَهم وما يَنتحلون به من المذاهب والفضائل: تارةً عِلمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة»[٢].

شابكتُهم متبرِّكًا بأكفِّهم ... إذ شابكوا كفًّا على كريمهْ
ولربّما يكفي المُحبّ تعلّلًا ... آثارُهم ويعدُّ ذاكَ غَنِيَمه[٣]

وهذا النوويُّ يبين فضل قراءة تراجم أهل العلمِ والفضل، فيقولُ: «اعلم أنَّ لمعرفة أسماءِ الرّجالِ، وأحوالِهم، وأقوالِهم، ومراتبِهم، فوائدُ كثيرةٌ:

منها: معرفةُ مناقبِهم، وأحوالِهم، فيتأدّب بآدابِهم، ويقتبس المحاسنَ من آثارهم.

١- مقدمة ترتيب المدارك (١/٢٣).
٢- تاريخ ابن خلدون «فصل: في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم» (١/٧٤٣-٧٤٤).
٣- الإفادات والانشادات للشاطبي (ص٩٢) ط: الرسالة، و«رسالة المسلسلات» للكتاني (ص٥٢)، و«بغية الوعاة» (١/٢٠٠).

ومنها: مراتبُهم وأعصارُهم، فينزلون مَنازلهم، ولا يقصر بالعالي في الجلالةّ عن درجته، ولا يرفعُ غيره عن مرتبته، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

ومنها: أنَّهم أئمتُنا وأسلافُنا، كالوالدين لنا، وأجدى علينا في مصالح آخرتنا التي هي دارُ قرارنا، وأنصحُ لنا فيما هو أعودُ علينا، فيقبحُ بنا أنْ نجهلهُم، وأن نهملَ معرفتهم...»[(١)].

مجالسُهم مِثلُ الرِّياضِ أنيقةٌ لقدْ طابَ منها الرِّيحُ واللَّونُ والطَّعمُ

وأردت أن أسوقَ بعضًا من الجوانب المهمة من حياة القادة والعلماء الأجلاء ليكون ذلك من خير المحفِّزات، وأفضلُ الدَّوافع لسلوك طريقهم القويم -بإذن الله تعالى-. فكما قيل: «الطِّباعُ سرَّاقة»[(٢)]، و«الطَّبعُ لصٌّ»[(٣)].

إنَّ السعيدَ لمنْ لهُ من غيرِهِ عظةٌ وفي التَّجاربِ تحكيمٌ ومُعتبَرُ

إنَّنا نعيش اليوم انفصالًا عن التاريخ، وجهلًا بماضي الأمة التليد، شبابنا يتيم، ورجالنا حائر بليد، لا تشاؤمًا؛ ولكن وصفًا للحال.

١- تهذيب الأسماء واللغات (١/١٠-١١)

٢- قاله ابن جماعة كما في «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٩٤).

٣- قاله ابن الجوزي كما في «تلبيس إبليس» (ص١٤٦)، وابن قدامة كما في «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٥٣).

ليس اليتيمُ الذي قد مات والدُه إنَّ اليتيمَ يتيمُ العلمِ والأدبِ[١]

إنَّ الأمة بحاجة ماسة، وبالخصوص طلاب العلم أن يكون لديهم اطلاع على تاريخهم، فهو مصدر من مصادر عزهم وفخارهم، فبه يجارون السابقين بأخلاقهم وسلوكهم، ويتشبهون بهم في صبرهم وبذلهم، ومن لا يقرأ الماضي لن يستطيع أن يبني للمستقبل، ومن لا يعرف التاريخ العظيم والماضي التليد؛ كيف له أن يسوغه واقع حال تعيشه الأمة[٢]، لاسيَّما في ظل الواقع الحالي، والهيمنة العالمية على بلاد العرب والمسلمين. ومن قرأ في التاريخ أضاف عمرًا إلى عمره، وتجربة إلى تجاربه في الحياة، وعلمًا إلى علمه، ومعرفة إلى معرفته.

لَيْسَ بِإِنْسَانٍ وَلَا عَاقل من لَا يعي التَّارِيخ فِي صَدره
وَمن روى أَخْبَار من قد مضى أضَاف أعمارًا إِلَى عمره[٣]

فهو كما قال الإمام الشافعي رحمه الله: «من علِم التاريخ زاد عقله»[٤] .

وحكى بدر الدين القرافي عنه أنَّه قال ما معناه: «دأبت في قراءة علم

١- الآداب الشرعيَّة (٢٢٤/١).
٢- قال ابن الأثير في «الكامل في التاريخ» (٢٣٣/٨). عن الملك ألب أرسلان بإنَّه: «كان كثيرًا ما يُقرأ عليه تواريخَ الملوكِ وآدابهم، وأحكام الشَّريعةِ، ولما اشتهر بين الملوك حسن سيرته، ومحافظته على عهودهِ، أذعنوا له بالطاعةِ والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النَّهر إلى أقصى الشام»
٣- الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى (٦٢/١).
٤- عجائب الآثار للجبرتي (٩/١٠).

التاريخ كذا وكذا سنة، وما قرأته إلا لأستعين به على الفقه»[١].

والعاقل من يفطن لمثل هذا فيبادر متعلمًا ثم عاملًا، كما قال ابن المبارك: «أول العلم النيَّة، ثمَّ الاستماع، ثمَّ الفهم، ثمَّ الحفظ، ثمَّ العمل، ثمَّ النشر»[٢].

فالنظر في التواريخ وأخبار الأمم والشعوب والأجيال التي انصرمت، وما مرَّ عليها من بؤس وسعادة، وحروب طاحنة، وفتن وملاحم؛ تفكَّرْ في ذلك كله؛ فالعقل ينمو ويكبُرُ بما يحصَّله من التجارب، والنظرُ فيما أصاب النَّاس مدعاة للتحرز، وصيانةٌ من الغفلة، وعصمةٌ من الزللِ أن يقع فيما وقعوا فيه، فيصيبه ما أصابهم؛ فعلى العاقلِ أن يُعملَ عقله، ويدرك بفكره حتى يحسم الداء قبل أن يبتلى به، ويدفع الأمر قبل أن يقع فيه، أمَّا من لا نظر له ولا فكر عنده، فهذا لا عقل له[١].

١- الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى (٥٩/١).
٢- جامع بيان العلم لابن عبد البر (٧٥٨).
١- أعمال القلوب (٣٠٧/١).

اسمه ونسبه ووصفه

الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أتابك[١] بن قسيم الدولة آق سنقر التركي، السلطاني، الملكشاهي، صاحب الشام وديار الجزيرة[٢] ومصر.

ويلقب زنكي أيضًا بلقب والده: قسيم الدولة، ويُقال لنور الدين: ابن القسيم[٣].

ولد وقت طلوع الشمس من يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة

١- أصله أطابك بالطاء المهملة ومعناه الأب الأمير، وأوّل من لقّب بذلك (زنكي) صاحب الموصل، ثمَّ غلبت فيه التاء المثناة بدل الطاء. كما في «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» للقلقشندي (١١/١٦٥).

٢- وهي الجزيرة الفراتية. قال ابن رشيق القيرواني في «العمدة في محاسن الشعر» (٢/١٦٥) ط: التوفيقية: وأمَّا (الجزيرة): «فإنَّها ما بين دجلة والفرات والموصل».

وقال السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» (ص١٤٠) ط: دار الكتاب العربي. «(الجزيرة): أكبر مدائنها الموصل يعني كمنبج وبالس والرها، خرج منها جماعة من المحدثين وحران والرقة، وغير ذلك خرج منها حفاظ وأئمة، ثم تناقص ثم انطوى البساط».

وقال الشيخ أحمد شاكر في «الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث» (الجزيرة): «ما بين دجلة والفرات».

٣- زنكي الأتابك عماد الدين صاحب الموصل وحلب، ويعرف أبوه بالحاجب قسيم الدولة أقسنقر التركي. ولي شحنكيّة بغداد في آخر دولة المستظهر بالله، ثمَّ نقل إلى الموصل، وسلّم إليه السلطان محمود ولده فرُّخشاه الملقّب بالخفاجي ليربيه، ولهذا قيل له أتابك. وكان فارساً شجاعاً ميمون النقيبة، شديد البأس، قوي المراس، عظيم الهيبة، فيه ظلمٌ وزعارة. ملك الموصل، وحلب وحماة وحمص وبعلبك والمعرّة. قتله بعض غلمانه وهو نائم وهرب إلى قلعة جعبر. ففتح لهم صاحبها عليّ بن مالك العقيليّ. وكان سامحه الله حسن الصورة أسمر مليح العينين قد وخطه الشيب. وجاوز الستين. قتل في ربيع الآخر كما في «العبر في خبر من غبر» (٢/٤٥٩-٤٦٠)، و«تاريخ الإسلام» (١١/٧٧٩).

إحدى عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرهما من البلدان الكثيرة، وتعلم الفروسية والرمي، وكان شهمًا شجاعًا ذا همةٍ عالية، وقصد صالح، وحرمة وافرة، وديانة متينة[١]. طويل القامة، أسمر اللون، حلو العينين، واسع الجبين، حسن الصورة، تركي الشكل، ليس له لحية إلا في حنكه، مهيبًا متواضعًا عليه جلالة ونور الإسلام، وتعظيم قواعد الشرع، رحمه الله[٢]. ذكيًا ألمعيًا، فطِنًا لوذعيًا، لا تشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال[٣].نقي الخدّ، شديد المهابة، حسن التواضع، طاهر اللّسان، كامل العقل والرأي، سليمًا من التكبر، خائفًا من الله. قلَّ أنْ يوجد في الصلحاء مثله، فضلًا عن الملوك رحمه الله وغفر له[٤].

١- سير أعلام النبلاء (٢٠/٥٣١)، و«البداية والنهاية» (١١/٤٨٠).
٢- وفيات الأعيان (٥/١٨٨) و«البداية والنهاية» (١١/٤٩٤).
٣- الروضتين في أخبار الدولتين النوريَّة والصلاحيَّة (١/٢٣٦).
٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦/٣٧٨).

الثناء عليه

مناقب الملك العادل مناقب جليلة، وصفاته عظيمة من جنس صفات الرعيل الأول، ولذا كثر المثنون عليه، وأجاد الواصفون له، ومن ذلك: قول ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ): «وكان سيرته أصلح من كثير من الولاة»[١].

وقال ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ): «قد طالعتُ تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام ومنه إلى يومنا هذا، فلم أَرَ فيها بعد الخلفاء الرَّاشدين وعمر بن عبد العزيز ملكًا أحسنَ سيرةً من الملك نور الدِّين، ولا أكثر تحرِّيًا للعَدْل والإنصاف منه»[٢].

وقال أبو شامة الدمشقي (ت ٦٦٥هـ): «ومرَّ بي فيه من الملوك المتأخرين، ترجمةُ الملك العادل نور الدين؛ فأطربني ما رأيتُ من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير خلانه، ثمَّ وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيِّد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين ﷺ في المتقدِّمين؛ فإنَّ كل ثانٍ من

١- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (١٨/٢١٠)، وعنه في «مرآة الزمان» (٢١/٢١٠).

٢- ينظر كلامه في «التاريخ الباهر» (ص١٦٣) و«الكامل في التاريخ» (٤/٣٩٤) وكلاهما له، ونقله سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (٢١/٢٠٥)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (١١/٤٨٢) وابن العماد في «شذرات الذهب» (٦/٣٧٩).

الفريقين حذا حذوَ من تقدَّمه في العدل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أي اجتهاد. وهما ملِكا بلدتنا، وسُلْطانا خطَّتنا، خَصَّنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيامُ بذكر فضلِهما. فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلَّه يقف عليه من الملوك، من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أبعد أنَّهما حجَّةٌ من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين. فإنَّهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوَهُمْ من الأئمة السَّابقين، ويقولون نحن في الزمن الأخير، وما لأولئك من نظير. فكان فيما قدَّر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحُجَّة عليهم بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبُّه بهما أحد، إنْ وفَّقَ الله تعالى الكريمُ وسدَّد، وأخذتُ ذلك من قول أبي صالح شُعيب بن حرْب المدائني رحمه الله -وكان أحد السادة الأكابر في الحفظ والدين- قال: «إنِّي لأحسبُ يجاء بسفيان الثَّوري يوم القيامة حجَّةً من الله تعالى على هذا الخلق؛ يُقال لهم: إنْ لم تدركوا نبيكم فقد أدركتم سفيان، ألا اقتديتم به؟!» وهكذا أقول: هذانِ حجَّةٌ على المتأخرين من الملوك والسلاطين. فلله درُّهُما من ملكَيْنِ تعاقبا على حُسنِ السيرة، وجميل السريرة، وهما حنفي وشافعي شفى الله بهما

كل عِيَّ، وظهرت بهما من خالقهما العناية، فتقاربا حتى في العُمر ومدَّة الولاية، وهذه نكتة قلَّ مَنْ فطِن لها ونبَّه عليها، ولطيفةٌ هداني الله بتوفيقه إليها[١].

وقال: وَلما اشْتهر بِهِ من قِلَّة ابتهاجه بالمدح[٢] لما علم من تزيد الشُّعَرَاء، **وَهِي طَرِيقَة عمر بن عبد الْعَزِيز زاهد الْخُلَفَاء**.

ثمَّ قال: قال يحيى بن محمد الوهراني في مقامة له، وقد سُئِل في بغداد عن نور الدين: «هو سهمٌ للدَّولة سديد، وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد، وملك مجاهد، تساعده الأفلاك، وتعضده الجيوش والأملاك، غير أنَّه عُرف بالمرعى الوبيل، لابن السَّبيل وبالمحل الجديب، للشاعر الأديب، فما يُرزَّى ولا يعزَّى، ولا لشاعرٍ عنده من نعمةٍ تجزى»[٣].

وقال عنه ابن خلكان (ت ٦٨١هـ): «ضربت السكة والخطبة لنور الدين بمصر، وكان زاهدًا، عابدًا، متمسكًا بالشرع، مجاهدًا، كثير البر والأوقاف، له من المناقب ما يستغرق الوصف»[٤].

وقال تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ): «قد اعتبرت فوجدت أربعة لا

١- الروضتين (١/٢٦-٢٧).
٢- ينظر: تاريخ ابن عساكر (١٦/١٤٩).
٣- الروضتين (٢/٣١٤).
٤- وفيات الأعيان (٥/١٨٥-١٨٨).

خامس لهم في العدل بعد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلا أن يكون بعض أناس لم تطل لهم مدة، ولا ظهرت عنهم آثار ممتدة، وهم سلطانان، وملك، ووزيره في العجم وهما هذا السلطان -محمود بن سبكتكين- والوزير نظام الملك، وبينهما في الزمان مدة، وسلطان وملك في بلادنا، وهما السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس، وقبله الملك نور الدين محمود بن زنكي الشهيد، ولا أستطيع أن أسميه سلطانًا؛ لأنَّه لم يسم بذلك»[١].

قال ابن العماد (ت ١٠٨٩هـ): «أجلُّ ملوك زمانه، وأعدلهم، وأدينهم، وأكثرهم جهادًا، وأسعدهم في دنياه وآخرته»[٢]. وغير ذلك من النعوت والممداح الصادقة لهذا الأمير مما هو مسطور في كتب التاريخ والسير.

١- طبقات الشافعية الكبرى (٥/٣١٥).
٢- شذرات الذهب (٦/٣٧٨).

طلبه للعلم وعنايته بالعلم وأهله

يقول الحافظ الذهبي عن دمشق: «تناقص العلم بها في المائة الرابعة، والخامسة، وكثر بعد ذلك، ولا سيَّما في دولة نور الدين، وأيام محدّثها ابن عساكرٍ، والمقادسة النازلين بسفحها، ثمَّ تكاثر بعد ذلك بابن تيميّة، والمزّيّ، وأصحابهما، ولله الحمد»[١].

و**بنى رحمه الله المدارس** بدمشق وحمص وحماة وحلب للشافعية والحنفية، حتى أنَّ بلاد الشامِ كانت خاليةٌ من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرًا للعلماء والفقهاء[٢].

كان **حنفيّ المذهبِ**، ويراعي مذهب الشافعي ومالك، و**سمع الحديث، وحدَّث بحلب ودمشق عن جماعة أجازوا له** مثل: نصر بن سيار، وأبي نصر محمد بن محمود في آخرين، وسمع منه جماعة، وشهرته تغني عن الأطناب[٣]. وسمع من أبي محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري، وغيرهم.

قال أبو شامة: وروى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد[٤]،

١- الأمصار ذوات الآثار (ص٢٦).
٢- سيرة نور الدين زنكي لابن قاضي شُهبة (ص١٣١).
٣- الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١٥٨/٢).
٤- تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن الحسن من بني عساكر، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٠هـ).

وأبي البركات الحسن، وأبي منصور عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي[١].

وكان مليح الخط، كثير المطالعة، يتشبه بالعلماء والأخيار[٢]. وكان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلمُ والدين وأحوال الصالحين[٣]. مكرمًا للعلماء ينهض للقائهم، ويؤنسهم، ولا يردُّ لهم قولًا[٤]. ويكاتبهم بخط يده[٥]. ووقف كتبًا كثيرة على أهل العلم وأحسن إليهم، حريصًا على تحصيل الكتب الصحاح والسنن، كثير المطالعة للفقه، والحديث، كثير التلاوة القرآن[٦]. وكان عالماً بفنون العلوم، و**صنَّف كتابًا في سيرة النَّبيِّ ﷺ**[٧]**.وكتاباً في الجهاد**[٨].

وحقَّ لمن علم سيرته ﷺ، وكتب كتابًا في الجهاد أن يكون مظفرًا ولعدوه قاهرًا، وفي ملكه عادلًا[٩].

١- الروضتين (١/٥٧).
٢- السير (٢٠/٥٣٣).
٣- التاريخ الباهر (ص١٧٣).
٤- تاريخ ابن خلدون (٥/٢٩٧)، و«الأعلام» للزركلي (٧/١٧٠).
٥- الكامل (٩/٣٩٥).
٦- تاريخ الإسلام (١٢/٤٢٤) بتصرف يسير.
٧- مرآة الزمان (٢١/٢٠٨).
٨- المصدر نفسه (٢١/٢١١).
٩- وهذا الحرص على قراءة السيرة وفهمها، هو الذي يخرج جيل الفتح والتمكين بإذن الله، ولهذا كان السلف يعتنون بتلقين أبنائهم سيرة النبي ﷺ كما قال إسماعيل بن محمد بن سعد: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ ويعدها علينا، وسراياه ويقول: (يا بنيَّ هذه مآثر آبائكم

وروى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه، وكان قد استجيز له ممَّن سمعه وجمعه؛ حرصًا منه على الخير في نشر السنَّة والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثًا كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره؛ فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره![١].

وكان رحمه الله عنده أهل العلم في محلٍّ عظيم، وكان يجمعهم عنده للبحث والنظر، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة[٢].

وحكي أنَّ بعض الأُمراء كان يحسدُ القطب النَّيسابوري –الفقيه الشافعي– لقربه من نور الدِّين، فنال منه يومًا عنده، فقال له: «يا مسكينُ، لو نظرتَ في عيب نفسك لشَغَلَك عن عيوبِ غيرك، وإنْ صحَّ ما قلته عنه فله حسنةٌ واحدة يغفر الله له بها كل زلة، وهي العِلْم، وأنتَ وأصحابك ليست لكم عند الله حسنة، والله لأن عدت إلى ذكره أو ذكر غيره بسوء لأؤدِّبنك، فكفَّ عنه»[٣].

فلا تضيعوا ذكرها)».

وعن عبد الله بن محمد بن علي، عن أبيه، قال: سمعت علي بن الحسين، يقول: «كنَّا نُعلم مغازي النبي ﷺ وسراياه كما نعلم السورة من القرآن» كما في «الجامع لأخلاق الراوي» للخطيب البغدادي (١٥٨٩-١٥٩١).

١- تاريخ دمشق (١٢٣/٥٧).

٢- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٢٨٣/١).

٣- مرآة الزمان (٢٠٩/٢١)، و«الروضتين» (٤٧/١)، و«سيرة الملك العادل» (ص١٣٦)،

ولما وصل الفقيه المذكور -قطب الدين النيسابوري- في سنة ثمان وستين وخمس مئة، وهو فقيه عصره، ونسيج وحدِه، سُرَّ نور الدين به، وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثمَّ أطلعه إلى دمشق، فدرَّس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسي رحمه الله، ونزل بمدرسة الجاروخ. وشرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشَّافعية لفضله[١].

ومثله: الفقيه الأندلسي شعيب بن أبي الحسن بن حسين بن أحمد، وكان من الفقهاء والزهاد. وكان الملك نور الدين محمود يعتقد فيه ويتردد إليه، فوقف على هذا المسجد وقفاً فرتب فيه شعيباً المذكور مدرساً على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه[٢].

ومثله: شيخ حران وخطيبها، ومفتيها ومدرسها حامد بن محمود بن حامد بن محمد بن أبي عمرو الحراني، بنى له السلطان نور الدين محمود المدرسة في حران لأجله، ودفعها إليه، ودرس بها، وتولى عمارة جامع حران، فما قصر فيه، قيل: إنَّه راح إلى الروم، وتولى نشر الخشب بنفسه. قال ابن حمدان: «كان شيخ حران، وخطيبها ومدرسها، ولأجله بنيت

وأصله في «التاريخ الباهر» (ص١٧٠-١٧١) والمثبت في «الروضتين» وغيرها (له حسنة تغفر له كلَّ زلةٍ تذكرُها وهي: العلم والدين).

١- الروضتين (٢/٣٦٣-٣٦٤).

٢- شذرات من كتب مفقودة في التاريخ (١/٥٢).

المدرسة النورية بحران»[١].

ومثله: الفقيه الزاهد محمد بن أحمد بن قدامة الجماعيلي، كان محترمًا عند الملك العادل نور الدين محمود، وزاره، وبنى له في الجبل مسجدًا وسقاية[٢].

ومثله: نجم الدين بن السري خرج من بغداد وقدم إِلَى الملك العادل رضي الله عنه فأكرمه واحترمه ونزل دمشق عَلَى أوفر منزلة وأجل مرتبة[٣].

ومثله: محمد بن محمد بن محمد، نجم الدين، أبو عبد الله الختنيّ، أحد علماء الحنفيّة. قدم دمشق واجتمع بالملك العادل نور الدين فأقبل عليه وولّاه تدريس الصادريّة[٤].

ومثله: شيخ الشيوخ ابن حمويه، نصبه السلطان نور الدين محمود شيخ الشيوخ بالشام، وكان وافر الحرمة[٥].

ومثله: محمود بن أحمد بن علي بن أحمد، أبو الفتح المحمودي البغدادي الجعفري الصوفي، ابن الصابوني[٦].قدم أبو الفتح هذا دمشق ونزل إلى

١- ذيل طبقات الحنابلة (٢/٢٨٥-٢٨٨)، و«شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (٦/٣٩٢).
٢- المصدر نفسه (٣/١٢٠).
٣- إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي (ص٣١٤).
٤- المقفى الكبير (٧/٥١).
٥- قلادة النحر (٤/٢٧٧).
٦- منسوب إلى جد أمه شيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني.

زيارته السلطان نور الدين محمود، وسأله الإقامة بدمشق، فذكر له قصده زيارة الشافعي رحمه الله، فجهزه صحبة الأمير نجم الدين أيوب عندما سار إلى ولده صلاح الدين، وصار بينه وبين نجم الدين مودة أكيدة، ومحبة عظيمة، فكان السلطانان الناصر والعادل يرعيانه ويحترمانه[١].

ويذكر أنَّ الحافظ ابن عساكر الدمشقي حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لا حد عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي، وتكرر من صلاح الدين الطلب له، فحضر، فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال: «نزهت نفسي عن مجلسك، فإنَّني رأيته كبعض مجالس السُّوقة؛ لا يستمع إلى قائل، ولا يرد جواب متكلم، وقد كنَّا بالأمس نحضر مجلس نور الدين، فكنَّا -كما قيل- كأنَّما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا». فتقدم صلاحُ الدِّين إلى أصحابه أنَّه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير: «فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله مضبوطة محفوظة»[٢].

١- تاريخ الإسلام (٧٤٢/١٢).

٢- التاريخ الباهر (ص١٧٢-١٧٣)، و«الروضتين» (٤٩/١)، و«سيرة الملك العادل»

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه قال له بعض صحابة السوء: إنَّ لك في بلادك إدرارات وصلات ووقوفاً كثيرة على الفقهاء، والفقراء، والقراء، والصوفية وغيرهم، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح؛ فغضب من ذلك وقال: «**والله إنيِّ لا أرجو النصر إلا بدعاء أولئك، فإنمَّا ترزقون وتنصرون بضعفائكم**[١]**، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم!**»[٢].

وكتب إليه النُّواب: فإذا لم تغيِّر عليهم شيئًا، وقد وقعتَ في هذه الورطة العظيمة، فلو أمرتنا لاقترضنا من أرباب الأموال ما تستعين به على جهاد العدو، فقد نَفِدَتْ الخزائن، ويطمع العدو في الإسلام. فبات مفكِّرًا، وقال في نفسه: نقترض، ثم ندفع العوض. ثم قال: ما أفعل. وباتَ قلقًا

(ص١٢٨-١٢٩).

١- وذلك محاكاة لحديث رواه البخاري رقم (٢٨٩٦) في الجهاد: (باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب)، من حديث مصعب بن سعد بن أبي وقّاص رحمه الله، ولفظه: «هل تنصرون إلّا بضعفائكم».

٢- زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن أبي جرادة (٢/٤٩١)، وانظر: «وفيات الأعيان» (٥/١٨٨).

قلت: وهذا شبيه بسيرة الوزير العالم العادل نظام الملك السلجوقي، كما قال السيوطي في «حسن المحاضرة» (٢/١٠٤) عن نظام الملك الطوسي السلجوقي: «وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك حين أنكر عليه السلطان صرفه الأموال الكثيرة في جهة طلب العلم، فقال: أقمت لك جندًا لا ترد سهامهم بالأسحار؛ فاستصوب فعله، وساعده عليه».

إلى وقت السَّحر، فنام، فرأى إنسانًا يُنْشِد:

أَحْسِنُوا ما دامَ أمركُمُ نافذًا في البَدْو والحَضَر
واغْنموا أَيَّام دَوْلتكُمْ إنّكُمْ مِنْهَا علَى خَطَرِ[١]

وبنى رحمه الله المدرسة النورية (دار الحديث النُّورية) نسبةً إليه[٢]. أو التي تعرف بـ(مشيخة دار الحديث العادليَّة)[٣]. أو (دار السُنَّة)، أو (دار السنَّة النورية).

قال ابن أبي شامة: «وبنى بدمشق أيضًا دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفًا كثيرة، وهو أول من بنى دارًا للحديث فيما علمنا.

وبنى أيضًا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة.

وبنى أيضًا مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن»[٤].

قال المقريزي: «أوَّل من بنى دار حديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق»[٥].

١- مرآة الزمان (٢١/٣٨)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٦/٣٠٣-٣٠٤).
٢- نزهة الأنام في تاريخ الإسلام لابن دقماق (ص٩٢).
٣- السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٣/١٠٩٣).
٤- الروضتين (١/٤٨).
٥- حسن المحاضرة (٢/٢٤٠).

وهذه المدرسة بناها السلطان نور الدين للحافظ ابن عساكر الدمشقي تكريمًا له فأملى بها بعض كتبه ومسموعاته[١].

وقد درَّس فيها عددٌ من العلماء، مثل: (ابن عساكر، وابنه، وجماعة من آل عساكر، والمزي، وابن المزي، وابن العطار المعروف بمختصر النواوي، والبرزالي، وابن كثير، وجماعة كثر)[٢].

ومثل هذا البناء حصل أيضًا في حلب، فإنَّ الملك العادل في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة شرع في تجديد المدارس والرباطات بحلب، وجلب أهل العلم والفقهاء إليها، فجدد المدرسة المعروفة بالحلاويين، واستدعى برهان الدين أبا الحسن علي بن الحسن البلخي وولاه تدريسها[٣].

والعلاقة بين الملك العادل نور الدين والحافظ ابن عساكر علاقة وثيقة قائمة على النَّصيحة والغيرة على الدين والبلاد والعباد، ومن ذلك نجد أنَّه ألَّف كتابًا سمَّاه (الأربعون في الحث على الجهاد)، وهو للأمير نور الدين زنكي، كما قال فيه: «فإنَّ الملك العادل الزاهد المجاهد المرابط وفقه الله للسداد وأعانه على القيام بمصالح العباد، وأمده من فضله بصالح الإمداد، وأعز نصره بجنده، وشد أزره بالأمداد، أحب أن

١- سلم الوصول إلى طبقات الفحول لحاجي خليفة (٣٥٩/٢).
٢- دور الحديث الشريف بدمشق (ص١٠-١٥) ط: دار المكتبي.
٣- زبدة الحلب من تاريخ حلب (٤٧٦/٢) ط: زكار.

أجمع له أربعين حديثًا في الجهاد؛ تكون واضحة المتن، متصلة الإسناد، تحريضًا للمجاهدين الأجلاد وأولي الهمم العالية، والسواعد الشداد، وذوي المرهفات الماضية، والأسِنَّة الحداد؛ ليكون لهم تحضيضًا على الصدق عند اللقاء والجلاد، وتحريضًا على قلع ذوي الكفر والعناد؛ الذين سعوا بكفرهم في البلاد، وأكثروا فيها من البغي والفساد، صبَّ عليهم ربنا سوط عذاب، إنَّه لبالمرصاد؛ فسارعت إلى امتثالِ ما التمس من المرادِ، وجمعتُ له ما يرتضيه أهل المعرفة والانتقاد، واجتهدت في جمعها غايةَ الاجتهاد، رجاءَ أن يحصل لي أجرَ التبصيرِ والإرشاد، والله الموفقُ للصوابِ في الإصدار والإيراد، والمسدِّدُ في الأقوال في الإسهاب والاقتصاد»[1].

وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله؛ أنَّه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم رحمه الله مجلس نور الدين لسماع

١- مقدمة كتابه (ص٤٨-٤٩)، وصنف أيضًا كتاب وسمَّاه بعنوان: «الاقتداء بالصادق في حفر الخندق»، يحث فيه أهل الشام على الثبات، والتصدي للغزاة.

قلت: ومثل هذا حصل مع أبي الفرج ابن الجوزي كما قال سبطه في «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (٢١/٢١١) «وقد صنف كتابًا سماه «الفخر النوري» فيه أحاديث العدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك، وصنف نور الدين أيضًا كتابًا في الجهاد، وهو بدمشق».

ومثله: مجد الدّين طاهر بن نصر الله بن جهبل الكلابي الحلبي الشّافعي الفرضي، مدرس مدرسة صلاح الدّين بالقدس. سمع الحديث من جماعة، وحدّث وصنّف للسلطان نور الدّين الشهيد كتابًا في فضل الجهاد، وهو والد بني جهبل الفقهاء الدمشقيون، وأحد من قام على السّهروردي الفيلسوف، وأفتى بقتله، مات بالقدس عن أربع وستين سنة. كما في «شذرات الذهب» (٦/٥٣٠).

شيء من الحديث، فمرَّ في أثناء الحديث أنَّ النبي ﷺ خرج متقلدًا سيفًا فاستفاد نور الدين أمرًا لم يكن يعرفه، وقال: «كان رسول الله ﷺ يتقلَّدُ السيف»، يشير إلى التعجُّب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك يربطونه بأوساطهم

قال: فلمَّا كان من الغدِ مررنا تحت القلعة والنَّاسُ مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظرُ إليه معهم، فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلِّدٌ السيفَ وجميع عسكره كذلك.

فرحمة اللهُ على هذا الملك الذي لم يُفرِّط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه وردَّ جندهُ عن عوائدهم؛ اتباعًا لما بلغه عن نبيه ﷺ فما الظن بغير ذلك من السنن[١].

١- الروضتين (١/٥٤).

زهده وتواضعه

وكان رحمه الله من الزهد والعبادة على قدر عظيم، يصلي كثيرًا من الليل، كانت الدنيا بيده لا بقلبه، وكان يقول: «**إنَّما الزهدُ خلو القلبِ من محبة الدنيا، لا خلو اليد عنها**».

قال ابن الأثير: فإن قال قائلٌ: كيف يوصفُ بالزُّهد من له الممالكُ الفسيحة، وتجبى إليه الأموال الكثيرة؟ فليذكر نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام مع ملكه، وهو سيد الزاهدين في زمانه ونبينا ﷺ قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين[١].

قلت: وكلام الملك العادل هو كلام الإمام عبد الله بن المبارك إذ قال: «**الزهد أن يزهد في الدنيا بقلبه**».

قال أبو عبد الله القرطبي: «وهذا قول حسن جدًا، وحصولها في اليد أو عدم حصولها سواء، فإنَّ الزهد من أعمال القلوب. وكذلك كان الصحابة رضي الله عنهم كانت الدنيا في أيديهم، وهم معرضون عنها بقلوبهم»[٢].

وقال العماد: «ولم يزلْ لنور الدين في قلبه من الدِّين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العبَّاد، وأعبد الزُّهاد، ومن الأولياء الأبرار، والأتقياء

١- التاريخ الباهر (ص١٦٦)، و«الروضتين» (١/٣٨)، و«سيرة الملك العادل» (ص١٥٥).
٢- قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة للقرطبي (ص١٦٠).

الأخيار، وقد نظر بنور الفِرَاسة أنَّ الفتحَ قريب، وأنَّ الله لدعائه ولو بعد وفاته مجيب»[١].

وما كان أحدٌ من الأُمراء يتجاسر أن يجلس عنده من هيبته، **فإذا دَخَلَ عليه فقيرٌ أو عالم أو ربُّ حِرْفة، قام ومشى إليه وأجلسه إلى جانبه، ويعطيهم الأموال**، فإذا قيل له في ذلك يقول: هؤلاء لهم حقٌّ في بيت المال، فإذا قنعوا منا ببعضه، فلهم المِنَّة علينا.

سُلْطَانُنَا زَاهِد وَالنَّاس قَدْ زَهِدُوا ... لَهُ فُكُلٌّ عَلَى الخيرَات مُنْكَمِشُ

أَيَّامُه مِثْلُ شَهْر الصَّوْم طَاهِرَةٌ ... مِنَ المعَاصِي وَفِيْهَا الْجُوع وَالعطشُ[٢]

وكان رحمه الله من الأولياء، كما ذكر ذلك اليافعي في «مرآة الجنان»، وعنه السيوطي في «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة»[٣].

أَمَا نهارُكَ فَهُوَ لَيْلُ مُجَاهِدٍ ... وَاللَّيْلُ مِنْ طولِ الْقيامِ نَهَارُ

وما كان يبذل أموال المسلمين إلا في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد؛ وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز، -وهو من سادات التابعين بالشَّام-، قال يعقوب بن سفيان الحافظ: حدثنا ضمرة، عن

١- الروضتين (٣/٣٩٣).

٢- معجم الأدباء (٢/٥٧٧)، و«السير» (٢٠/٥٣١-٥٣٥)، و«الكامل» لابن الأثير (١١/٤٠٣).

٣- مرآة الجنان (٣/٣٣٠)، و«حسن المحاضرة» (٢/٤٩) من الطبعة التوفيقية.

السَّيباني، قال: كان ابن الديلمي من أنصر الناس لإخوانه، فذُكِر ابن مُحَيرِيز في مجلسه، فقال رجلٌ: كان بخيلًا. فغضب ابن الديلمي وقال: «كان جوادًا حيث يحب الله، وبخيلًا حيث تحبُّون»[١].

وتزوج الخاتون بنت معين الدِّين أنَر، فطلبتْ منه زيادةَ نفقة فغَضب واحمَّر وجهه، وقال: «**قد فرضتُ لها ما يكفيها، والله لا أخوض جهنَّم في هواها**، وهذه الأموال ليست لي إنَّما هي للمُسْلمين، وأنا خازنُهم، فلا أخونهم فيها، ولي بحمص ثلاث دكاكين اشتريتها من الغنائم، قد وهبتها لها»، وكان يحصل منها قدر يسير[٢].

وركب يومًا مع بعض أصحابه والشمس في ظهورهما، وظلها بين أيديهما لا يدركانه، ثمَّ رجعا فصار الظل وراءهم، فساق الملك نور الدين وجعل يلتفت وظله يتبعه، ثمَّ قال لصاحبه: «قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها». وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى:

مَثَلُ الرِّزْقِ الَّذِي تَطْلُبُهُ ... مَثَلُ الظِّلِّ الَّذِي يَمْشِي مَعَكْ

أَنْتَ لَا تُدْرِكُهُ مُتَّبِعًا ... فَإِذَا وَلَّيْتَ عَنْهُ تَبِعَكْ[٣]

١- الروضتين (٢/٣١٥).

٢- مرآة الزمان (٢١/٢٠٥).

٣- البداية والنهاية (١١/٤٨٢-٤٨٣).

وكانت زوجته عصمت الدين خاتون بنت الأتابك معين الدين أنر، تكثر قيام الليل فنامت ذات ليلة عن وردها فأصبحت وهي غضبى، فسألها عن أمرها فذكرت ما حصل لها من النوم الذي قطعها عن وردها، فأمر بضرب طبلخانة في القلعة وقت السحر، ليوقظها وأمثالها من النوم لقيام الليل:

وَأَلْبَسَ اللَّهُ هَاتِيكَ الْعِظَامَ وَإِنْ ... بَلِينَ تَحْتَ الثَّرَى عَفْوًا وَغُفْرَانَا

سَقَى ثَرَى أُودِعُوهُ رَحْمَةً مَلَأَتْ ... مَثْوَى قُبُورِهِمُ رَوْحًا وَرَيْحَانَا[1]

قال الموفق عبد اللطيف: «كان نور الدين لم ينشف له لبدٌ من الجهاد، وكان يأكل من عمل يده، ينسخ تارة، ويعمل أغلافًا تارة، ويلبس الصوف، ويلازم السجادة والمصحف».

وكان يؤاخي الصالحين ويزورهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم. ومتى تكررت الشكاية من ولاته عزلهم. وأكثر ما أخذه من البلدان تسلمه بالأمان، وكان كلَّما فتح الله عليه فتحًا، وزاده ولاية؛ أسقط عن رعيته قسطًا، حتى ارتفعت عنهم الظلامات والمكوس، واتضعت في جميع ولايته الغرامات والنحوس[2].

١- البداية والنهاية (١١/٤٨٣)، وينظر: قصته مع زوجته في «التاريخ الباهر» (ص ١٦٣)، و«الروضتين» (١/٣٤-٣٥).

٢- تاريخ الإسلام (١٢/٤٢٤).

فِي كلِّ عَام للبريَّة لَيْلَةٌ ... فِيهَا تَشُبُّ النَّار بالإيقادِ
لَكِن لنُور الدِّين مِنْ دونِ الورى ... نارانِ نَارُ قرىً ونارُ جِهَادِ
أبدًا يصرّفها نَدَاهُ وبأسُهُ ... فالعامُ أَجْمَعُ لَيْلَة الميلادِ
مَلِكٌ لَهُ فِي كلِّ جِيْدِ منَّةٌ ... أبهى مِنْ الأطْواقِ فِي الأَجْيادِ
أَعلَى الْمُلُوك يدًا وأمنعهُم حِمًى ... وأمدُّهم كفًّاً ببَذْلِ تلادِ
يُعْطي الجزيلَ من النَّوالِ تبَرعًا ... من غيرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا ميعادِ
لازالَ فِي سَعْدٍ وَمُلْكٍ دَائِمٍ ... مَا دَامَتِ الدُّنْيَا بِغَيْرِ نَفَادِ

وقال قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم: كان نور الدين ينفذُ في كلِّ سنةٍ في شهر رمضان، ي**طلب من الشيخ عمر الملَّاء شيئًا يفطرُ عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطرُ عليه، وكان إذا قدم الموصل لا يأكلُ إلا من طعام الشيخ عمر الملاء**[1].

ورُوي أنَّه كَتَبَ رقعةً بخطه إلى وزيره خالد بن القَيسَراني يأمره أن يكتبَ له صورةَ ما يُدْعى له به على المنابر، وكان مقصودُه: صيانةَ الخطيبِ عن الكَذِب، ولئلا يقول ما ليس فيه، فكتبَ ابنُ القَيسراني كلامًا، ودعا له فيه، ثمَّ قال: وأرى أن يقال على المنبر، اللهم وأَصْلح عبدَك

١- الروضتين (١/٥٩-٦٠).

الفقيرَ إلى رحمتك، الخاضعَ لهيبتك، المعتصم بقوَّتِك، المجاهِدَ في سبيلك، المرابطَ لأعداء دِينك، أبا القاسم محمود بن زَنْكي بن آق سُنْقُر ناصر أمير المؤمنين، فإنَّ هذا ما يدخلُهُ كَذِبٌ ولا تزيُّد، فكتَبَ نورُ الدين على رأسها بخطِّه: مقصودي ألا يُكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لا أعمل، قِلَّة عقل! عظيم الذي كتبت به جيد، اكتبْ به نُسَخًا إلى البلاد[١].

قال ابن العديم: وحدثني والدي قال: استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم وشرف الدين بن أبي عصرون إلى الميدان الأخضر وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص.

فلمَّا شهدنا عليه التفت إلينا، وقال: «**بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه وأشركونا في الثواب**».

فقال شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئًا من أبواب البر إلا وقد فعله ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه[٢].

وكان نور الدين يزور الشيخ أحمد في المدرسة الصَّغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدَّير، ونور الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن، قال فجاء يومًا لزيارة والدي، وكان في سقف المسجد خشبة مكسورة، فقال له

١- مرآة الزمان (٢١/٢٢٠-٢٢١).
٢- الروضتين (١/٥٨-٨٩).

بعضُ الجماعة: يا نورَ الدِّين لو كشفت السقف وجدَّدته. فنظر إلى الخشبة وسكت، فلما كان من الغد جاء معماره ومعه خشبة صحيحة، فزرقها موضع المكسورة ومضى، فعجب الجماعة، فلما جاء إلى الزِّيارة قال له بعضُ الحاضرين: يا نور الدِّين، فاكرتنا في كشف السقف. فقال: لا والله، وإنَّما هذا الشيخ أحمد رجل صالح، وإنَّما أزوره لأنتفع به، وما أردتُ أن أزخرف له المسجد، وأنقض ما هو صحيح، وهذه الخشبة يحصل بها المقصود، فدعوني مع حُسْن ظني فيه، فلعلَّ الله ينفعني به[١].

قلت: ما فعله الأمير العادل هو الذي أمر به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، ففي «صحيح البخاري» معلقًا: أمر عمر رضي الله عنه ببناء المسجد وقال: «أكن الناس من المطر، وإيَّاك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس»[٢].

١- مرآة الزمان (٢١/٢١١-٢١٢).

٢- صحيح البخاري (١/١٧١) قوله (أكن) فعل أمر من الإكنان أي أصنع لهم كنانًا وهو ما يسترهم من الشمس ويحميهم من المطر.

وقوله: (تحمر أو تصفر) احذر طلي المسجد بالأحمر أو الأصفر. وقوله: (فتفتن) تفسد عليهم صلاتهم وتوقعهم في الإثم لاشتغالهم بالألوان عن الخشوع في الصلاة.

جهاده في سبيل الله

كان ملكًا عادلًا، مجاهدًا في سبيل الله، انتزع من الكفار نيفًا وخمسين مدينة وحصنًا[١].

وكان في الحربِ ثابتَ القدم، شديد الانكماش، حسَن الرمي، صليبُ الضربِ، يتقدمُ أصحابه في الحربِ عندَ ضيقِ المقام، ويحمي منهزمهم عند الفرة[٢].

إِذَا سَارَ نورُ الدِّينِ فِي عَزَماتِهِ ... فقُولَا لِلَيْلِ الإفكِ قدْ طلَعَ الفجْرُ

هُمامٌ مَتى هَزَّتْ مَواضي سُيُوفه ... لها ذِكراً، زُفّتْ له قَلْعةٌ بِكْر[٣]

حمل رايتي العدل والجهاد، وقلَّ أنْ ترى العيون مثله، حاصر دمشق، ثمَّ تملكها، وبقي بها عشرين سنة.

افتتح أولًا حصونًا كثيرة، وفامية[٤]، والراوندان[٥]، وقلعة إلبيرة، وعزاز، وتل باشر[٦]، ومرعش، وعين تاب، وهزم البرنس صاحب أنطاكية، وقتله

١- المنتظم (١٠/٢٤٨-٢٤٩)، وكذا سبطه في «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (٢١/٢٠٣) قال: «فتح نيفًا وخمسين حِصْنًا»، وقارنه بـ «تاريخ دمشق» (٥٧/١١٩).

٢- تاريخ دمشق (٥٧/١٢٠).

٣- خريدة القصر (٢/٢٥٥).

٤- أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص (معجم البلدان).

٥- قلعة حصينة وكورة طيبة من نواحي حلب.

٦- تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب (معجم البلدان).

في ثلاثة آلاف من الفرنج، وأظهر السنَّة بحلب، وقمع الرافضة[١].

جَمَعَ الشَّجَاعَةَ وَالْخُشُوعَ لَدَيْهِ مَا أَحْسَنَ الْمِحْرَابَ فِي الْمِحْرَابِ

وكان إذا استشهد أحدٌ من أجناده حفظه في أهله وأولاده، وأجرى عليهم الجرايات، وولى من كان أهلًا منهم للولايات[٢].

قال ابن الأثير: من أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده، فإنَّه كان إذا توفي أحدُهم وخلَّف ولدًا أقرَّ الإقطاع عليه، فإنْ كان الولدُ كبيرًا استبدَّ بنفسه، وإن كان صغيرًا رتَّبَ معه رجلًا عاقلًا يثقُ إليهِ فيتولى أمرَهُ إلى أن يكبر.

فكان الأجناد يقولون: «**هذِهِ أملاكُنا يرثها الولدُ عن الوالدِ فنحنُ نقاتلُ عليها**»، وكان ذلك سببًا عظيمًا من الأسبابِ الموجبةِ للصبر في المشاهد والحروب[٣].

عقدَ الْحَقُ ألسنَ المدعينا أَنْتَ خيرُ الْمُلُوك دنيًا ودِينَا
بسطَ الرزقَ فِي البسيطةِ كَفاك فكلتا يَديك تُلْقي يَمِينا
فيدٌ تحسم النوائبَ عَنَّا وَيَدٌ تقسمُ الرغائِبَ فِينَا[٤]

١- السير للذهبي (٢٠/٥٣٢).
٢- تاريخ دمشق (٥٧/١٢٤).
٣- التاريخ الباهر (ص١٦٩)، و«الروضتين» (١/٤٤) والمثبت منه.
٤- تاريخ ابن الوردي المعري (٢/٨٢).

وما كان يتكل الجندَ على الأُمراءِ بل يتولاهم بنفسه، ويباشر هم، يتفقد خيولهم وسلاحهم مخافة أن يقصِّر الأُمراءُ في حقِّهم، ويقول: «نحنُ كلَّ وقت في النَّفير، فإذا لم تكن أجنادُنا كاملي العُدَّة دخل الوَهْن على الإسلام»[١].

وكان رحمه الله إذا فتح حصنًا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالًا وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفًا من نُصرةٍ تتجدد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدَّة غير محتاجة إلى شيء[٢].

إِنْ حَلَّ فالشرفُ التَلِيدُ أَنِيسُهُ ... أَو سَارَ فالظَّفَرُ الطَّرِيفُ قَرِينُهُ
فالدَّهْرُ خاذلُ مَنْ أَرَادَ عِنَادَه ... أبدًا وجَبَّارُ السَّمَاءِ مُعِينُهُ
وَالدّينُ يشْهدُ إِنَّه لمعِزُّهُ ... والشِّرْكُ يعلمُ إِنَّه لمهينُهُ[٣]

ويذكر أنَّ إمامًا لنورِ الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: «أعلِم نور الدين أنَّ الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة».

فقال: يا رسول الله: ربما لا يصدقني، فاذكر لي علامة يعرفها.

فقال: قل له بعلامةِ ما سجدت على تل حارم، وقلت: «يا رب انصر

١- مرآة الزمان (٢١/٢٠٧).
٢- الروضتين (١/٢٤٧).
٣- تاريخ دمشق (٥٨/٧٧).

دينك ولا تنصر محمودًا، من هو محمود الكلب حتى ينصر!؟»

قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنَّه ينزل إليه بغلس[١]، ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة إلا أنَّني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين: رحمه الله اذكر العلامة كلها وألح عليَّ في ذلك فقلتها، فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا[٢].

وَكَيْفَ لا تُثْنِي عَلَى عَيْشِنَا الـ ـمَحْمُودِ والسُّلْطَانُ مَحْمُودُ!
وَصَارِمُ الإِسْلَامِ لَا يَنْثَنِي إِلَّا وشِلْوُ الكُفْرِ مَقْدُودُ
مَكَارِمٌ لَمْ تَكُ مَوْجُودَةً إِلَّا وَنُورُ الدِّينِ مَوْجُودُ[٣]

وقال له قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي: «بالله يا مولانا السلطان، لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين؛ فإنَّك عمادُهم، ولئن أُصبت في معركةٍ والعياذُ بالله، لا يبقى من يقومُ مقامك، ولا يبقى من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيف، وتؤخذ البلاد».

فقال: «**يا قطبَ الدين اسكتْ، فإنَّ قولك هذا إساءة أدبٍ على الله تعالى، ومَنْ محمود حتى يقال له هذا؟؟ قبْلي مَنْ حفظ البلاد**

١- الغلس: ظلمة آخر الليل.
٢- الروضتين (٢/١٤٣-١٤٤).
٣- زبدة الحلب (٢/٤٧٥).

والإسلام ذلك الله الذي لا إله إلا هو»، فبكى من كان حاضرًا[١].

ووقع بيده إفرنجي من أكابر الملوك، ففدى نفسه بمالٍ عظيم، فشاور نور الدِّين أمراءَه، فأشارُوا ببقائه في الأَسْر خوفًا من شرِّه، فأرسل إليه نور الدِّين في السِّر يقول: «أحضرِ المال»، فأحضر ثلاث مئة ألف دينار، فأطلقه فعند وصوله إلى مأمنه مات، فطلب الأُمراء أسهمهم من المال، فقال نور الدِّين: «ما تستحقون منه شيئًا، لأنكم تَهَيتُم عن الفداء، وقد جمع الله لي الحُسْنيين: الفداء، وموت اللعين»، وخلاص المسلمين منه. فبنى بذلك المال المارَسْتان[٢].

وعن جماعة من الصوفية ممَّن يعتمد على قولهم أنَّهم دخلوا بلاد القدس للزيارة أيام الفرنج، فسمع الكفار يقولون: ابن القسيم - يعنون نور الدين - له مع الله سر؛ فإنَّه ما يظفر علينا بكثرة جنده وجيشه، وإنَّما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنَّه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعوه، فالله سبحانه وتعالى، يستجيب له دعاءه، ويعطيه سؤله، وما يرد يده خائبة، فيظفر علينا. قال: فهذا كلام الكفار في حقه، رحمه الله[٣].

وكان له صديق بالجزيرة من الصالحين، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله

١- السيرة لابن قاضي شهبة (ص١٢٦)، و«التاريخ الباهر» (ص١٦٩)، و«الكامل» (٩/٣٩٥).
٢- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/٢٠٨)، و«شذرات الذهب» (٦/٣٨٠).
٣- البداية والنهاية (١٦/٤٩٠)، و«الروضتين» (١/٦٣).

ويرجع إلى قوله، فبلغه أنَّ نور الدين يدمن اللعب بالكرة، فكتب إليه يقول له: «ما كنت أظنُّك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية»! فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له: «**والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنَّما نحن في ثغر، والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضًا ملازمة الجهاد ليلًا ونهارًا، شتاءً وصيفًا، إذ لا بدَّ من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جمامًا لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب عنها جمامها، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة**»[١]. وكان رحمه الله مولعًا بضرب الكُرة، وربَّما دخل الظَّلامُ فلعب بها بالشُّموعِ في الليلة المسْفرةِ[٢].

قال ابن واصل: كان من أقوى النَّاسِ قلبًا وبدنًا، لم ير على ظهر فرس أحد أشد منه، كأنَّما خلق عليه لا يتحرك، وكان من أحسن الناس لعبًا بالكرة، يجري الفرس ويخطفها من الهواء، ويرميها بيده إلى آخر الميدان، ويمسك الجوكان بكمه تهاونًا بأمره، وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة،

١- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٢٦٦/١).
٢- الروضتين (٣٦/٢).

فلم أدركها.

قلت -الذهبي-: قد أدركها على فراشه، وعلى ألسنة الناس: «نور الدين الشهيد»[١].

وقيل له: إنَّك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود -إلى الشام-، فقال: «تغيَّر قلبي فيها، فإنْ لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضًا أنَّني ها هنا لا أكون مرابطًا للعدوِّ وملازمًا للجهاد!!»[٢].

وقيل: إنَّ برهان الدين البلخي أنكرَ على الملك نور الدين في استعانته في الحروب بأموال المكوس، وقال: «كيف تنصرون وفي عساكركم الخمور والطبول والزمور؟!»[٣].

ويقال: إنَّ سبب وضعه المكوس عن النَّاس، أنَّ الواعظ أبا عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي -وكان من الصالحين الكبار- أنشد نور الدين:

مَثِّلْ وُقُوفَكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
إِنْ قِيلَ نُورُ الدِّينِ رُحْتَ مُسَلِّمًا ... فَاحْذَرْ بِأَنْ تبْقَى وَمَا لَكَ نُورُ
أَنْهَيْتَ عَنْ شُرْبِ الْخُمُورِ وَأَنْتَ مِنْ ... كَأْسِ الْمَظَالِمِ طَافِحٌ مَخْمُورُ
عَطَّلْتَ كَاسَاتِ الْمُدَامِ تعَفُّفًا ... وَعَلَيْكَ كَاسَاتُ الْحَرَامِ تَدُورُ

١- السير للذهبي (٢٠/٥٣٧).
٢- التاريخ الباهر (ص١٥٤).
٣- زبدة الحلب (٢/٤٧٦).

مَاذَا تَقُولُ إِذَا نُقِلْتَ إِلَى الْبِلَى ... فَرْدًا وَجَاءَكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ
وَتَعَلَّقَتْ فِيكَ الْخُصُومُ وَأَنْتَ فِي ... يَوْمِ الْحِسَابِ مُسَحَّبٌ مَجْرُورُ
وَتَفَرَّقَتْ عَنْكَ الْجُنُودُ وَأَنْتَ فِي ... ضِيقِ اللُّحُودِ مُوَسَّدٌ مَقْبُورُ
وَوَدِدْتَ أَنَّكَ مَا وَلِيتَ وِلَايَةً ... يَوْمًا وَلَا قَالَ الْأَنَامُ أَمِيرُ
وَبَقِيتَ بَعْدَ الْعِزِّ رَهْنَ حُفَيْرَةٍ ... فِي عَالَمِ الْمَوْتَى وَأَنْتَ حَقِيرُ
وَحُشِرْتَ عُرْيَانًا حَزِينًا بَاكِيًا ... قَلِقًا وَمَا لَكَ فِي الْأَنَامِ مُجِيرُ
أَرَضِيتَ أَنْ تَحْيَا وَقَلْبُكَ دَارِسٌ ... عَافِي الْخَرَابِ وَجِسْمُكَ الْمَعْمُورُ
أَرَضِيتَ أَنْ يَحْظَى سِوَاكَ بِقُرْبِهِ ... أَبَدًا وَأَنْتَ مُبَعَّدٌ مَهْجُورُ
مَهِّدْ لِنَفْسِكَ حُجَّةً تَنْجُو بِهَا ... يَوْمَ الْمَعَادِ لَعَلَّكَ الْمَعْذُورُ

فلما سمعها الملك نور الدين بكى، وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده.

وكان يقول في سجوده: «**اللهم ارحمِ العشَّار المكَّاس**»[١].

وأجهد نفسهُ في جهادِ أعداء الله، وبالغ في حربهم، وتحصَّل في أسرِهِ جماعة من أمراء الفرنج خذلهم الله كـ:جوسلين وابنه، وابن أنفونس، وقومص أطرابلس، وجماعة من ضربهم[٢].

١- البداية والنهاية (١٦/٤٨٨-٤٨٩).
٢- تاريخ دمشق (٥٧/١٢٢).

قال العماد: وسألني نور الدّين أَنْ أعمل دوبيتيات[١]. فِي معنى الجِهَاد على لِسَانهِ فَقلت:

للغزْوِ نشاطي وَإِلَيْهِ طَرِبِي ... مَالِي فِي الْعَيْش غَيره من أَرَبِ
بالجدِّ وبالجهادِ نُجْحُ الطَّلَبِ ... والرَّاحة مُسْتودَعَةٌ فِي التَّعَبِ

وَقلتُ أَيْضًا:

لَا رَاحَة فِي الْعَيْش سوى أَن أغزو ... سَيْفي طَرَبًا إِلَى الطُّلى[٢] يَهْتَز
فِي ذُلِّ ذَوي الْكُفْرِ يكونُ الْعِزُّ ... وَالْقُدْرَة فِي غيرِ جهادٍ عَجْزُ

وَقلتُ أَيْضًا:

أَقْسَمتُ سوى الْجِهَادِ مَالِي أَرَبُ ... والرَّاحةُ فِي سِواهُ عِنْدِي تَعَبُ
إِلَّا بالجدِّ لَا يُنَالُ الطَّلَبُ ... والعَيْشُ بِلَا جدِّ جهادٍ لَعِبُ[٣]

ومن أجلّ أنواع جهادهِ إبطاله للمنكرات، والاحتساب على أصحاب البدع، وإقامة الحدود على أصحاب الشرور، وهذا من خير الجهاد، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

١- لفظ مركب من كلمتين: إحداهما فارسيَّة وهي "دو"، أي اثنان، والأخرى "بيت" بالعربية، وسمَّوه كذلك لأنَّه لا يكون إلا بيتين، ولا يجوز فيه اللحن مطلقًا، ويعرف بـ(الرباعي) أيضًا.
٢- الطُلى: الأعناق، مفردها طُلاة (اللسان).
٣- الروضتين (٢/٢٤١-٢٤٢)، و«خريدة القصر» (بداية قسم شعراء الشام) (٤٢-٤٣).

قال أبو سليمان الداراني: «ليس الجهاد في هذه الآية قتال العدوّ فقط؛ بل هو نصرة الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين؛ وأعظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله»[١].

وحكي أنَّ إنسانًا بدمشق يعرفُ بيوسف بن آدم، كان يظهر الزهد والنُّسك، وقد كثُرَ أتباعُه، أظهر شيئًا من التشبيه، فبلغ خبرُه نور الدين، فأحضره وأركبه حمارًا وأمر بصفعه، فطيف به في البلاد جميعِه، ونودي عليه: هذا جزاءُ من أظهر في الدين البدع. ثمَّ نفاهُ من دمشق، فقصد حران وأقام بها إلى أن مات[٢].

وذكر من ترجم له بأنَّه: لم يَلْبَس حريرًا قطُّ ولا ذهبًا ولا فضَّة، ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده، ومن إدخاله إلى بلد، وكان يحدُّ شاربها الحد الشرعي، والنَّاس عنده سواء في ذلك[٣].

وذكر المطري في كتابه «تاريخ المدينة» أنَّ السلطان محمود رأى رؤية، وقال: لا يبقى بالمدينة أحد إلّا جاء، فلم يبق إلّا رجلان مجاوران من أهل الأندلس، نازلان في الناحية التي قبلة حجرة النّبيّ ﷺ من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب التي تعرف اليوم بدار العشرة رضي الله عنهم

١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/٣٢٦).
٢- الروضتين (١/٤٩-٥٠).
٣- التاريخ الباهر (ص١٦٤)، و«مرآة الزمان» (١/٢٠٥)، و«الروضتين» (١/٣٤)، و«سيرة الملك العادل» (ص١٥٦).

قالا: نحن في كفاية، فجدّ في طلبهما، حتّى جيء بهما، فلما رآهما قال للوزير: هما هذان، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما، فقالا لمجاورة النّبيّ ﷺ فكرر السؤال عليهما، حتّى أفضى إلى العقوبة، فأقرا أنَّهما من النَّصارى، وصلا لكي ينقلا النّبيّ ﷺ من هذه الحجرة الشريفة، ووجدهما قد حفرا نقبًا تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلي يجعلان التراب في بئر عندهما في البيت، فضرب أعناقهما عند الشباك الذي في شرقي حجرة النّبيّ ﷺ خارج المسجد، ثمَّ أحرقا[١].

وفي «تاريخ المدينة الشريفة» للسيد الشريف نور الدين علي السمهودي: أنَّ الملك العادل نور الدين أمر بإحضار رصاص عظيم، وحفر خندقاً عظيماً إلى الماء حول الحجرة كلها، وأُذيب ذلك الرصاص، وملئ به الخندق، فصار حول الحجرة رصاصاً إلى الماء رحمه الله، ورضي عنه[٢].

١- شذرات الذهب (٦/٣٨١)، وانظرها باختصار في «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» للسخاوي (١/٤٥).
٢- التاريخ المعتبر في أنباء من غبر لمجير العليمي الحنبلي (٢/٦٧).

عدله

كان الملك العادل نور الدين رحمه الله أول من بنى دارًا للكشفِ وسمَّاها «دار العدل»، وكان سبب بنائها أنَّه لما طال مقامه بدمشق، وأقام بها أمراؤه -وفيهم أسد الدين شيركوه[١]، وهو أكبر أمير معه، وقد عظُم شأنه وعلا مكانه، حتى صار كأنَّه شريك في الملك- واقتنوا الأملاك وأكثروا، وتعدى كل واحدٍ منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها، فكثرت الشكاوي إلى كمال الدين، فأنصف بعضهم من بعض، ولم يقدم على الإنصاف من أسد الدين شيركوه، فأفضى الحال إلى نور الدين، فأمر حينئذٍ ببناء دار العدل، فلمَّا سمع أسدُ الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم، وقال لهم: اعلموا أنَّ نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي؛ وإلا فمن

١- شيركوه بن شاذي بن مروان، أبو الحارث، أسد الدين، الملقب بالملك المنصور: أول من ولي مصر من الأكراد الأيوبيين. وهو أخو نجم الدين أيوب، وعمّ السلطان المظفر صلاح الدين. كان من كبار القواد في جيش نور الدين (محمود ابن زنكي) بدمشق، وأرسله نور الدين على رأس جيش إلى مصر سنة (٥٥٨ هـ) لنجدة لشاور بن مجير السعدي وعاد. وذهب إليها ثانية سنة (ت ٥٦٢ هـ) لنجدة ابن أخيه (صلاح الدين) وقد حاصره (شاور) في الإسكندرية، فأصلح ما بينهما، وقويت صلته بالمصريين، وعاد. وهاجم الفرنج بلدة (بلبيس) بمصر، وملكوها، فكتب إليه أهلها يستنجدونه. فأقبل للمرة الثالثة، وطرد الفرنج. وعلم بأن شاور بن مجير يأتمر به لقتله هو ومن معه من كبار القواد، فتعاون مع صلاح الدين على قتل شاور. وأرسل رأسه إلى الخليفة (العاضد) فدعاه العاضد، وخلع عليه ولقبه بالملك المنصور، وولاه الوزارة. ولم يقم غير شهرين وخمسة أيام، وتوفي فجأة. ودفن بالقاهرة ثم نقل إلى المدينة، بوصية منه. وكان، كما يصفه ابن تغري بردي، عاقلا شجاعا مدبرا وقورا. كما في «الأعلام» (١٨٢/٣-١٨٣).

هو الذي يتمنع على كمال الدين؟ ووالله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنَّه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك، فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي طريق أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي.

فقالوا له: إنَّ النَّاس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب.

فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهلُ عليَّ مِنْ أن يراني نور الدين بعين أنِّي ظالم، أو يساوى بيني وبين آحاد العامة في الحكومة.

فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم. فلمَّا فرغت دارُ العدلِ جلسَ نور الدين فيها لفصل الحكومات، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء، وبقي كذلك مدة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحدًا يشكو من شيركوه.

فعرفه الحال فسجد شكرًا لله تعالى، وقال: «الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا»[١].

وكلَّما فتح الله عليه فتحًا وزاده ولاية أسقط عن رعيته قسطًا وزادهم رعاية حتى ارتفعت عنهم الظلامات والمكوس[٢]. وكان يعظم الشريعة،

١- الروضتين (١/٤١-٤٢)، و«مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» (١/٢٦٨-٢٦٩).
٢- تاريخ دمشق (٥٧/١٢٤).

ويقف عند أحكامها[١].

كَمْ سيرةٍ أَحْيَيْتَها عُمَرِيةٍ رُفِعَتْ لَهَا فِي الْخَافِقيْن منارُ
ونوَافِلٍ صَيَّرْتَهُنَ لوَازِمًا بِأَقَلِّهَا تُسْتَعبَدُ الْأَحْرَارُ
لَا زِلْتَ تقْفو الصَّالِحِينَ مُسَابِقًا لَهُمُ وتَطْلُعُ خَلْفَكَ الْأَبْرَارُ
نفْسُ السِّيَادَةِ زُهْدُ مثلكَ فِي الَّذِي فِيهِ تَفَانَتْ يَعْرُبٌ ونزارُ

وابتنى البيمارستان بدمشق، وهو أحسن مما بني من البيمارستانات بالبلاد[٢]، ومن شرطه: أنَّه على الفقراء والمساكين، وإذا لم تُوجد بعض الأدوية التي يعزُّ وجودُها إلا فيه فلا يمنعُ منه الأغنياء، ومن جاء مستوصفًا فلا يمنع من شرابه، ولهذا جاء إليه نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله[٣].

قلت: وهذا من عدله أنَّه جعله للفقراء، ثمَّ استثنى الأغنياء إلا في حال الحاجة إليه، وهو لم يأته إلا لما احتاج إليه.

وجاءه رجل طلبه إلى الشرع، فجاء معه إلى مجلس كمال الدين الشهرزوري، وتقدمه الحاجب يقول للقاضي: قد قال لك: اسلك معه ما تسلك مع آحاد النَّاس.

١- الكامل (٩/٣٩٥).
٢- وبقي عامرًا يعالج فيه المرضى إلى سنة (١٣١٧ هـ). انظر: «البيمارستانات في الإسلام» (٢٠٦ - ٢١٣).
٣- سيرة الملك العادل (ص١٣٤).

فلمَّا حضر سوى بينه وبين خصمه، وتحاكما، فلم يثبت للرجل عليه حق، وكان ملكًا، ثمَّ قال السلطان: فاشهدوا أنِّي قد وهبته له!![١].

وحكى شاذبخت الخادم النوري قال: كنت يومًا أنا وسنقر خجا واقفين على رأس نور الدين وقد صلَّى المغرب وجلس وهو مُفكرٌ فكرًا عظيمًا، وجعل ينكُتُ بأصبعه في الأرض، فتعجبنا من فكره، وقلنا: ترى في أي شيء يفكر؟ في عائلته أو في وفاء دينه؟ فكأنَّه فطِن بنا، فرفع رأسه، وقال: ما تقولان؟

فقلنا: ما قلنا شيئًا.

فقال: بحياتي قولا لي.

فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا يُفكِرُ في عائلته أو في نفسه؟

فقال: «**واللهِ إنَّني أُفكِر في والٍ وليَّتهُ أمرًا من أمور المسلمينَ فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخافُ المطالبة بذلك، فبالله عليكم –وإلا فخبزي عليكم حرامٌ– لا تريان قصةً تُرفعُ إليَّ أو تعلمان مظلمةً إلا وأعلماني بها، وارفعاها إليَّ**»[٢].

ومن أعجب ما يحكى أنَّ إنسانًا كان بدمشق غريبًا، استوطنها وأقام بها

١- السير للذهبي (٢٠/٥٣٦).
٢- سيرة نور الدين (ص١٢٠-١٢١).

لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله. فلمَّا توفي تعدى بعضُ الأجنادِ على هذا الرجل، فشكاه، فلم ينصف. فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه ويقول: **يا نور الدين، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك!** وقصد تربة نور الدين، ومعه من الخلق ما لا يحصى، وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعيَّة وإلا خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل -وهو عند تربة نور الدين يبكي والنَّاسُ معه- فطيَّب قلبه ووهبه شيئًا وأنصفه، فبكى أشدَّ من الأول.

فقال له صلاح الدين: لِم تبكي؟

قال: أبكي على سلطانٍ عدل فينا بعد موته.

فقال صلاح الدين: «**هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدلٍ فمنهُ تعلمناه**»[1].

وذكر أنَّه كان بدمشق يلعب بالكرة فرأى إنسانًا يحدث آخر ويشير بيده إليه، فأرسل إليه وسأله عن حاله، فقال: «لي مع الملك العادل حكومة، هذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني»، فعاد إليه، ولم يتجاسر يعرفه ما قال ذلك الرجل، وكتمه

١- التاريخ الباهر (ص١٦٧)، و«الروضتين» (١/٤١).

ذلك الأمر، فلم يقبل منه [نور الدين] غير الحق، فذكر له قوله، فألقى الجوكان[١] من يده، وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي، وهو إذ ذاك كمال الدين بن الشهرزوري، **وأرسل [نور الدين] إلى القاضي يقول له: «إنِّي قد جئت محاكمًا، فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري!»**، فلمَّا حضر ساوى خصمه وحاكمه، فلم يثبت عليه حق، وثبت الملك لنور الدين، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن معه: «هل ثبت له عندي حق؟». فقالوا: لا.

قال: «اشهدوا أنِّي قد أوهبته هذا الملك الذي حاكمني عليه، وهو له دوني، وقد كنت أعلم أنَّه لاحق له عندي، وإنَّما حضرت معه لئلا يظنُّ أنِّي ظلمته، فحين ظهر أنَّ الحق لي وهبته له»[٢].

ودخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجرٌ موسرٌ فمات بها، وخلَّف بها ولدًا صغيرًا ومالًا كثيرًا، فكتب بعضُ من بحلب إلى نور الدين يذكُرُ له أن قد مات ها هنا رجل تاجرٌ موسرٌ، وخلَّف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين.

وحسَّن له أن يرفعَ المالَ إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغيرُ، ويرضى منه

١- الجوكان كلمة فارسية معناها المحجن أو العصا أو الصولجان الذي تضرب به الكرة في اللعبة التي كانت تعرف باسم «الكرة والصوالجة».

٢- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٥٩/١)، و«الكامل» (٣٩٥/٩).

بشيءٍ ويمسك الباقي للخزانة!

فكتب على رقعته: «**أمَّا الميت فرحمه الله، وأمَّا الولد فأنشأه الله، وأمَّا المال فثمره الله، وأمَّا الساعي فلعنه الله**»[١]. قلت: وأمَّا نور الدين فأثابه الله.

وحضر صبيٌّ وبكى عند الملك العادل، وذكر أنَّ أباه محبوسٌ على أجرةِ حجرةٍ من حُجِر الوقف، فسأل عن حاله، قالوا: هذا الصبيُّ ابنُ الشيخ أبي سعد الصوفيِّ، وهو رجلٌ زاهدٌ قاعد في حجرةِ الوقف وليس له قدرة على الأجرة، وقد حبسه وكيلُ الوقف؛ لأنَّه اجتمع عليه أجرة سنة.

قال الملك العادل: كم أجرة السنة؟

فقالوا: مئة وخمسون قرطاسًا، وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرَّق له وأنعم عليه، وقال: «**نحن نعطيه كلَّ سنةٍ هذا القدر؛ ليصرفه إلى الأجرةِ ويقعد فيها، وتقدم بذلك وبإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأنَّ الإنعام كان في حقه**»[٢].

وقال الفقيه أبو طاهر إبراهيم بن الحسن بن الحصني الحموي: كنت عند الملك العادل محمود بن زنكي في دار العدل بدمشق، وقد أخرج أملاك أهل الشام، فجعل ينظرُ فيها، فلمَّا انتهى إلى ذكر خراج معرة النعمان،

١- الروضتين (١/٢٦٦-٢٦٧).
٢- الروضتين (١/٦٥)، وعنه في «سيرة الملك العادل» (ص١٥٣-١٥٤).

قال: إنِّي قد عزمت على انتزاع أملاك أهل المعرة من أيديهم، فقد رفع إليَّ أهلُ الخيرِ من الثِّقاتِ أنَّ جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة، فيشهدُ أحدُهم لصاحِبهِ في دعوى ملكٍ حتى يشهد ذلك معه في دعوى أخرى، وأنَّ الملك الذي في أيديهم إنَّما حصل لهم بهذه الطريقة.

قال: فقلت له: أيها الملك إنَّ الله تعالى أوجب عليك العدل في رعيّتك، فانظر واكشف، وتوقف في الأمور إذا رفعت إليك؛ فإنَّ أهل المعرةِ خلقٌ كثيرٌ، يستحيل تواطؤهم على شهادة الزور؟! وانتزاعُ الأملاكِ من أربابها بمجردِ هذا القولِ لا يجوز، قال: فأطرق ساعةً ثمَّ رفع رأسه وقال: إنِّي أُمسِكُها عليهم، ثمَّ أكشف عنها بعد ذلك، والتفت إلى كاتبه، وقال: اكتب كتابًا إلى الوالي في المعرة وليمسك جميع الملك الذي في أيدي أهلها حتَّى يستدعي البينةَ في ذلك فكتبه ووضعه بين يديه ليضع علامته عليه وإذا صبي على شاطئ بردى يغني ويقول:

اعدِلُوا مَا دامَ أمرُكُمْ نافِذًا في النَّفعِ والضرَرِ
واحفظُوا أيَّامَ دَولتِكُم إنَّكُم مِنْهَا عَلَى خَطَرِ
إنَّمَا الدُّنيَا وزِينتُها طِيب ما يَبقى مِنْ الأثَرِ

فلمَّا سمعه الملك العادل تغير لونه، وهملت عيناه بالدموع، ثمَّ نظر إليَّ وقال: ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى

اللَّـهِ﴾ ثمَّ استدار نحو القبلة وقال: «اللهم إنِّي أستغفرك وأتوب إليك ممَّا عزمتُ عليه الآن»، ثمَّ تناول الكتاب فمزقه وجعل يستغفر الله تعالى جميع ذلك اليوم[١].

ودخل يومًا إلى خزانته، فرأى مالًا كثيرًا، فقال: مِنْ أين هذا؟ قالوا: قد بعَثَ القاضي كمال الدِّين من فائض الأوقاف.

فقال: «**ردُّوه إليه، وقولوا له: أنا رقبتي دقيقة، لا أقدر على حَمْله غدًا، وأنتَ رقبتك غليظة تقدر على حَمْله**»[٢].

وفي جمادى الأولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، قال أبو شامة: ورأيت منشوره بذلك، وعلامته عليه بخطه (الحمد لله) يقول فيه:

وبعد: فإنَّ من سنتنا العادلة، وسير أيامنا الزاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم. وما نزال نجدِّد للرعية رسمًا من الإحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقري أعمال بلادنا المحروسة، ونصفيها من الشُّبه والشَّوائب، ونلحق ما نعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضَّرائب، تقربًا إلى الله تعالى الكافل لنا

١- المنهج المسلوك في سياسة الملوك (ص٥٦٦-٥٧٠)، و«طبقات الفقهاء الشافعية» (٢٩٨/١)، و«سيرة الملك العادل» (ص١٧٩-١٨٠).

٢- التاريخ الباهر (ص١٦٦-١٦٧)، و«مرآة الزمان» (٢٠٦/٢١).

بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب. وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضه الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج، وجبل سنير، وقصر حجاج، والشاغور، والعُقيبة، ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع ما يُقسَّط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابهِ، طلبًا لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهربًا من انتقامه وأليم عقابه. وسبيل النُّواب إطلاق ذلك على الدَّوام، وتعفيه آثاره والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من التدنُّس بأوضاره، وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسعٍ وستين، وما بعدها على تعاقب الأيام والسِّنين[1].

١- الروضتين (٢/٢٧٠-٢٧١).

أهم أعماله

بنى رحمه الله أسوار بلاده جميعها وقلاعها، فمنها: حلب، وحماة، وحمص، ودمشق، وبارين، وشيزر، ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وحصنها وأحكم بناها، وأخرج عليها الأموال الجليلة، وبنى المدارس الجليلة للحنفية والشافعية، فمن ذلك: المدرسة النورية بدمشق التي فيها قبره.

وكذلك بحلب وبحمص، وبحماة له مدرستان: إحداهما للحنفية، والأخرى للشافعية.

وبنى الجوامع في أكثر البلاد.

وبنى الجامع الذي على شط العاصي بحماة -وهو جامع حسن- وإلى جانبه بيمارستان من إنشائه.

وبنى بدمشق وحلب بيمارستانين في غاية الحسن، ووقف عليهما الوقوف الجليلة.

وبنى الربط والخانقات للصوفية في جميع البلاد، وأدر عليهم الإدرارات الجليلة الكثيرة، وكان يحضر مشايخ الصوفية ويقربهم ويدنيهم ويتواضع لهم.

وبنى أيضًا الخانات في الطرق، فأمن الناس، وحفظت أموالهم، وباتوا في الشتاء في كن من المطر.

وبنى الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها، ومعهم الطيور الهوادي، فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور، فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم، ولم يبلغ العدو منهم غرضًا. وبنى في كثير من بلاده مكاتب للأيتام، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة.

أوقف على المساجد من يقرأ بها القرآن وقوفًا جليلة[١].

وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة، حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنَّما كان يؤذن بحي على خير العمل؛ لأنَّ شعار الرفض كان ظاهرًا بها. وأقام الحدود.

وفتح الحصون وكسر الفرنج غير مرة، واستنقذ من أيديهم معاقل كثيرة من الحصون المنيعة التي كانوا قد استحوذوا عليها من بلاد المسلمين، كما تقدم بسط ذلك في السنين المتقدمة في أيامه.

وأقطع أمراء العرب إقطاعات؛ لئلا يتعرضوا للحجيج.

وبنى بدمشق مارستانًا حسنًا لم يبن في الشام قبله مثله ولا بعده أيضًا، ووقف وقفًا على من يعلم الأيتام الخط والقرآن، وجعل لهم نفقة وكسوة،

١- مفرج الكروب (١/٢٨٢-٢٨٤)، وانظر: «الكامل في التاريخ» (١١/١٥٢).

وعلى من يقرئ الأيتام وعلى المجاورين بالحرمين[١].

وبنى جامعه بالمَوْصل، وفوَّض عمارته إلى الشيخ عمر المِلَّاء، وكان من الصَّالحين، فقيل له: إنَّه لا يصلح لمثل هذا. فقال: إذا ولَّيتُ بعضَ الأجناد أو بعض العمال فلا يخلو من الظُّلم، وبناءُ الجامع لا يفي بظُلْم رجلٍ مُسْلم، وإذا ولَّيتُ مثل هذا الشيخ غَلَبَ على ظنِّي أنَّه لا يظلم، فإذا ظلم كان الإثمُ عليه لا عليَّ[٢].

ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس.

وبنى الجسور في الطرق، والخانات.

ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين، وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم وبقدر ما يكفيهم[٣].

وعمل الساعات عند باب الجامع بدمشق[٤].

وبنى بالموصل جامعًا غرم عليه سبعين ألف[٥].

وأمر باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده.

١- البداية والنهاية (١١/٤٨١).
٢- مرآة الزمان (٢١/٢٠٧).
٣- تاريخ دمشق (٥٧/١٢١).
٤- عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص٦٦١)، عملها فخر الدين بن الساعاتي في أيام الملك العادل نور الدين محمود رحمه الله.
٥- المنتظم (١٠/٢٤٨-٢٤٩)، و«مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (٢١/٢٠٣).

وكان سبب ذلك أنَّه اتَّسعت بلاده وطالت مملكته، فكانت من حد النَّوْبة إلى باب همذان، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج -لعنهم الله- ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر، ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض. فحينئذٍ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده، وأجرى الجرايات لها ولمربيَّها؛ فوجد بها راحة كبيرة. كانت الأخبار تأتيه لوقتها، لأنَّه كان له في كل ثغر رجال مرتَّبون، ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوْا أو سمعوا أمرًا كتبوه لوقته، وعلَّقُوه على الطائر، وسرحوه، فيصل إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه. فانحفظت الثغور بذلك حتى إنَّ طائفة من الفرنج نازلوا ثغرًا له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبس العدو، ففعلوا ذلك، فظفروا والفرنج قد أمِنوا لبُعْدِ نور الدين عنهم فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد.

قال القاضي الفاضل رحمه الله تعالى: «**الطيور ملائكة الملوك**». يشير إلى أن نزولها على الملوك من جوِّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء، مع فرط ما فيها من الأمانة، لا يتوهم من جهتها خيانة.

فلقد أحسن فيما وصف، وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف رحم الله الجميع[١].

وله غير ذلك من الأعمال العظيمة، والمساعي المباركة الحثيثة التي تشهد له بأنَّه كان على منهج النبي ﷺ، وغرز السلف رضي الله عنهم في فتوح البلاد وسياسته الرعية.

١- الروضتين (١/٢٢٩-٢٣٢)، و«صبح الأعشى» (١٤/٤٣٥).

موجز لأهم المعارك والفتوح والأحداث

في سنة إحدى وأربعين وخمس مئة: حاصر زنكي قلعة جعبر. فوثب عليه ثلاثةٌ من غلمانه فقتلوه وتملّك الموصل بعده ابنه غازي[١]. وتملّك حلب وغيرها ابنه الملك العادل نور الدين محمود[٢].

وفي سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة: غزا فيها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فافتتح ثلاثة حصون للفرنج بأعمال حلب[٣].

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة: أزال السلطان الأذان بحلب، بـ «حي على خير العمل» وسبّ الصحابة[٤].

في سنة أربع وأربعين وخمس مئة: في صفر من السنة وردت البشائر

١- سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، صاحب الموصل. ملكها بعد وفاة أبيه مودود، فلما بلغ نور الدين محمود بن زنكي موت أخيه مودود. سار حتى خيم قبالة الموصل ولم يكن قصده مقاتلة أهلها، وأرسل إلى ابن أخيه سيف الدين، وعرفه صحة قصده، وصالحه، ودخل الموصل، وأقر سيف الدين بها، وزوجه ابنته، وأعطى أخاه عماد الدين بن مودود سنجار.

فلمَّا توفي نور الدين، وملك السلطان صلاح الدين دمشق، ونزل على حلب فحاصرها..

سيَّر سيف الدين جيشا مقدمه أخوه عزّ الدين مسعود، فالتقوا عند قرون حماة، فانكسر عزّ الدين مسعود، فتجهز سيف الدين غازي بنفسه، وخرج صلاح الدين إلى لقائه، فتصافّا على تل السلطان بين حلب وحماة سنة إحدى وسبعين وخمس مائة، فانكسرت ميسرة صلاح الدين، فحمل صلاح الدين بنفسه، فانهزم جيش سيف الدين، ورجع إلى الموصل كما في «قلادة النحر» (٤/٢٧٥).

٢- العبر في خبر من غبر (٢/٤٥٩)، و«شذرات الذهب» (٦/٢١٠).

٣- المصدر السابق (٢/٤٦١)، و«النجوم الزاهرة» (٥/٢٨٠).

٤- النجوم الزاهرة (٥/٢٨٢).

من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى، وله الحمد من الظهور على حشد الإفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلا من خبَّر ببوارهم وتعجيل دمارهم؛ وذلك أنَّ نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الأتباع والسَّواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بإنَّب[١]، وهم في نحو أربع مئة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم، ووجد اللعين البرنس مقدَّمهم صريعًا بين حمُاته وأبطاله، فعرف وقُطع رأسُه وحمل إلى نور الدين. وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدَّة البأس، وقوة الحيل وعظم الخلقة، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة، والتناهي في الشّر[٢].

وفتح حصن فامية، وكان على أهل حماة وحمص منه ضررٌ عظيمٌ، وكانوا يشنون الغارات منه على البلاد، وكان بينه وبين حماة مرحلة واحدة، وهو حصن منيع على تل مرتفع عالٍ من أحصن القلاع وأمنعها. ومدحه الشعراء وأكثروا؛ منهم أبو الحسين أحمد بن منير قال:

خَنَسَ الثَّعالبُ حِين زجرَ مصحر ... مَلأ الْبِلَاد هماهمًا وزئيرًا

تركُوا مشاجرةَ الرِّماحِ لحاذقٍ ... جَعَلَتْ مخافتُه الْقُصُور قبُورًا

١- إنب: حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب (معجم البلدان).
٢- الروضتين (١/٢٠٤-٢٠٥).

لربيبِ حَرْبٍ لَمْ تزلْ فَعَلاتُهُ ... كالراء يلْزم لَفظهَا التَّكْرِيرا

أَسدٌ إِذا مَا عَادَ مِنْ ظفرٍ بمفـ ... ـترسٍ أحدَّ لمثلِهِ أظفورًا

يتناذرُ[١] الْأَعْدَاءُ مِنْهُ سطوةً ... ملْء الزَّمَانِ تغيُّظًا وزَفيرًا

عرفُوا لنُور الدّين وَقعَ وقائعٍ ... وَفِي بهَا الْإِسْلَام أمس نذورًا

أبدا يظافركَ الْقَضَاء على الَّذِي ... تبغي فترجعُ ظَافِرًا منصورًا

قوضْتَ بالنَّقع الظهائر[٢] ظلمَة ... وقفلتَ فاشتعلَ الدياجرُ نورًا

وعَلى الْعواصمِ مِن دفاعكَ عَاصِم ... يُنْسي الرَّشيدَ وينشرُ المنصورًا

وفيها: اتصل الخبر بنور الدين بإفساد الفرنج في الأعمال الحورانيَّة بالنَّهبِ والسبي، وأنَّ الأرض أجدبت؛ لانحباس الغيث، وترحَّل الفلاحون، فجاء نور الدين إلى بعلبك؛ ليوقع بالفرنج، فاتَّفق عند وصوله إلى بعلبك نزول الغيث، واستمر من يوم الثلاثاء إلى مصله، فجرت الأودية وزادت الأنهارُ، وامتلأت بِركُ حوران، فجهد الناس بالدعاء، وقالوا: «**هذا ببركته، وحسن نيته وسيرته**»[٣].

وفي ذلك يقول الشيخ أبو عبد الله القيسراني من قصيدةٍ أولها:

١- أي يخوف بعضهم بعضًا (اللسان).
٢- مفردها ظهيرة، وهي الهاجرة (اللسان).
٣- سير نور الدين (ص٢٤٨ وص٢٥٢).

هذِي العَزَائِمُ لَا مَا تَدَّعي القُضُبُ ... وَذِي المكَارِمُ لَا مَا قَالَتِ الكُتُبُ

صَافَحْتَ يَا ابنَ عِمَادِ الدِّينِ ذروتها ... براحةٍ للمَسَاعي دَونَهَا تَعَبُ

أَغْرَتْ سُيوفُك بالأفرنجِ راجفَةً ... فُؤَادُ رومِيةَ الكُبْرَى لها يَجِبُ

ضَرَبْتَ كبشَهُمُ مِنْها بقَاصِمَةٍ ... أُودى بها الصُّلْبُ وانْحطَّت بها الصُّلُبُ

طَهَّرْتَ أَرْضَ الأعادي مِنْ دمائِهِمُ ... طَهَارةً كلُّ سَيْفٍ عِنْدَها جُنُبُ

وقال ابن منير في ذلك:

صَدِمَ الصَّليبَ على صلابة عوده ... فتَفَرَّقَتْ أيدِي سَبَا خَشَبَاتُه

وَسَقى البرنْسَ وَقَدْ تبَرْنَس ذِلَّةً ... بالرَّوحِ مِمَّا قَدْ جنَت غَدرَاتُه

تمشْي القَنَاةُ برَأْسِهِ وَهُوَ الَّذِي ... نَظَمْتَ مَدَارَ النيرَّيْنْ قَنَاتُه[1]

ولله در العماد الكاتب إذ يقول:

يا خَيْبَةَ الإفرَنْجِ حينَ تَجَمَّعوا ... في حَيْرَةٍ وأَتَوا إلى حَوْرانِ

جاؤوا وَظَنُّهُمُ يُعَجِّلُ رِبْحَهم ... فأَعَدْتَهُمْ بالخِزْيِ والْخُسْرانِ

وَظُنونُهُمْ وَقُلوبُهُمْ قد أَيْقَنَتْ ... لِلرُّعْبِ بالإِخْفاقِ والْخَفَقانِ

وَجَلَوْتَ نورَ الدِّينِ ظُلْمَةَ كُفْرِهم ... لما صَدَعْتَ بِواضِحِ الْبُرهانِ

وَهَزَمْتَهُمْ بالرَّأْيِ قبلَ لقائِهِمْ ... والرَّأْيُ قَبْلَ شَجاعَةِ الشُّجْعانِ

راحوا فباتوا تَحْتَ كل مَذَلَّةٍ ... وَضَرَبْتَ مِنهُم فَوْقَ كلِّ بَنانِ

١- زبدة الحلب (٢/٤٧٩-٤٨٠).

ما في النَّصارى الْغُتْمِ إلاّ مَنْ لَهُ في الصُّلْبِ، بانَ الكَسْرُ وَالصُّلْبانِ
وَلَّوْا وَقَلْبُ شُجاعِهِمْ في صَدْرِهِ كالسَّيْفِ يُرْعِدُ في يَمِينِ جَبانِ[١]

وفيها: مات القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن موسى اليحصبي، أحد الحفاظ الأعلام[٢].

وفي سنة خمس وأربعين وخمس مئة: توجَّه نور الدين في عسكره إلى عزاز، ونزل عليها، وضايقها وواظب قتالها، إلى أنْ سهل الله تعالى ملكها بالأمان، وهي على غايةٍ من المنعة والحصانة والرَّفعة.

فلمَّا تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به ورحل عنها ظافرًا مسرورًا عائدًا إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأول[٣].

وفي سنة تسع وأربعين وخمس مئة: قال ابن الأثير: ملك نور الدين مدينة دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين آبق بن محمد، وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها أنَّ الفرنج ملكوا في السنة الخالية عسقلان؛ وهي مدينة فلسطين حُسنًا وحَصانَة.

ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلَّهفُ ولا يقدرُ على إزعاجهم عنها؛ لأنَّ دمشق في طريقه وليس له على غيرها معبر، لاعتراض بلاد الإفرنج

١- خريدة القصر (٥٧٣/٢).
٢- قلادة النحر (١٥٢/٤).
٣- الروضتين (٢٤٣/١).

في الوسط[١].

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة: ملك الملك العادل نور الدين حصن شيزر، وزال ملك بني منقذ[٢] عنها بعد أن ملكوها سنين كثيرة[٣].

وفيها: هزم الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الفرنج على صفد، وكانت وقعة عظيمة، وأخذ من الإفرنج غزة وبانياس.

وفيها: خرجت الإسماعيلية على حجاج خراسان، فقتلوا وسبوا واستباحوا الركب، وضج الضعفاء والجرحى، وشيخ إسماعيلي ينادي: «يا مسلمين؛ ذهبت الملاحدة فأبشروا، ومن هو عطشان سقيته، فبقي إذا كلمه أحد

١- التاريخ الباهر (ص١٠٦-١٠٧)، و«الروضتين» (١/٣٠١).

٢- وبنو منقذ جماعة، منهم أمراء وشعراء وأدباء، وما زالوا مالكي شيزر، وهي حصن قريب من حماة، معتصمين بحصانتها، حتّى جاءت الزلزلة في سنة نيّف وخمسين وخمس مائة، فخرّبت حصنها، وأذهبت حسنها، وتملّكها نور الدّين محمود بن زنكي، وأعاد بناءها، فتشعّبوا شعبا، وتفرّقوا أيدي سبأ كما في «الدر الثمين في أسماء المصنفين» لابن الساعي (ت ٦٧٤هـ) (ص٢٩٦).

وفي «المحمدون من الشعراء وأشعارهم» (ص١٥٦) يقول أسامة بن منقذ:

كل ملْك إلى زوال ... لا يعتري ذا اليقين شكُّهْ
إن لم يزل بانتقال حال ... أزال ذا الملك عنه هلكُهْ
فالله ربّ العباد باقٍ ... وهالِكٌ نِدُّهُ وشِرْكُهْ
فقل لمن يظلم البرايا: ... غرَّكَ إمهاله وتركُهْ
عسى ذنوباً عليك تحصى ... يحصرها نقده وحكُّهْ
كم ناسك نسكه رياءٌ ... أوْبَقَهُ في المعاد نُسْكُهْ

٣- النجوم الزاهرة (٥/٣٢٥).

جهز عليه، فهلكوا كلهم إلى رحمة الله تعالى»[١].

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمس مئة: عرض للملك العادل نور الدين مرض تزايد به، بحيث أضعف قوته ووقع الارجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرعايا وأعوان الأجناد، وضاقت صدور قطان الثغور والبلاد خوفاً عليه وإشفاقاً من سوء يصل إليه؛ لا سيَّما مع أخبار الروم والخبر من الافرنج خذلهم الله. ولما أحس من نفسه بالضعف تقدم إلى خواص أصحابه، وقال لهم: إنَّني قد عزمت على وصية إليكم بما قد وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين وبشروطها عاملين.

فقالوا: السمع والطاعة لأمرك، وما تقرره من رأيك وحكمك، فإنَّا له قابلون وبه عاملون.

فقال: إنَّي مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممَّن يكون بعدي من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين، وإن أخي نصرة الدين أمير ميران أعرف من أخلاقه وسوء أفعاله ما لا أرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي الأمير قطب الدين مودود بن عماد الدين متولي الموصل وخواصه، لما يرجع إليه من عقل وسدادٍ ودين وصحة اعتقاد

١- قلادة النحر (٤/٢٢٥-٢٢٦)، وينظر: «الكامل في التاريخ» (٩/ ٢٤٣)، و «العبر» (٤/١٤٦).

بأن يكون في منصبي بعدي، والساد لثلمة فقدي، فكونوا لأمره بعدي طائعين، ولحكمه سامعين، فأحلفوا له بصحة من نياتكم وسرائركم، واخلاص من عقائدكم وضمائركم.

فقالوا: أمرك المطاع، وحكمك المتبع. فحلفوا الأيمان الموكدة على العمل بشروطها واتباع رسومها، وأنفذ رسله إلى أخيه المذكور لأعلامه صورة الحال ليكون لها مستعداً وإليها مسرعاً. ثمَّ تفضل الله تعالى عليه وعلى كافة المسلمين ببدوء الابلال من المرض، وتزايد القوة في النفس والجسم، وجلس المدخول إليه والسلام عليه، فسرت النفوس بهذه النعمة، وقويت بتجديدها[١].

وفي سنة ثمان وخمسين وخمس مئة: كبس الفرنجُ نورَ الدين وهو نازلٌ بعسكره في البقيعة تحت حصن الأكراد، فلم يشعر نور الدين وعسكره إلا وقد أطلَّت عليهم صُلبان الفرنج، وقصدوا خيمة نور الدين، فلسرعة ذلك، ركب نور الدين فرساً، وفي رجله الشجَّة، فنزل إنسان كردي، نقضها، فنجا نور الدين، وقُتل الكردي، فأحسنَ نورُ الدين إلى مخلِّفيه ووقف عليهم الوقوف، وسار نور الدين إلى بحيرة حمص، فنزل عليها، وتلاحقَ به مَنْ سلم من المسلمين[٢].

١- تاريخ دمشق لابن القلانسي (ص٥٤٢).
٢- التاريخ المعتبر في أنباء من غبر (٦٣/٢).

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة: فيها كسر نور الدّين الشهيد الفرنج، وأسر صاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، وفتح حارم[١]. وأذاقهم كؤوس المنية بالأسنة والصوارم فأبادهم حتى لم يفلت منهم غير الشديد الذاهل، وكانت عدتهم ثلاثين ألفًا بين فارس وراجل، ثمَّ نزل على قلعة حارم فافتتحها ثانية وحواها، وأخذ أكبر قرى عمل أنطاكية وسباها، وكان قبل ذلك قد كسرهم قرب بانياس، وقتل جماعة من أبطالهم، وأسر كثيرًا من فرسانهم ورجالهم[٢].

وفي سنة ستين وخمس مئة: فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج. وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم، وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنَّه يريد طبريَّة، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها.

فسارَ نُور الدين مجدًا إلى بانياس لعلمهِ بقلَّةِ مَن فيها من الحماةِ المانعين عنها، ونازلها، وضيَّق عليها وقاتلها.

وكان في جُملة عسكرِهِ أخوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهْمٌ أذهب إحدى عينيه، فلمَّا رآه نور الدين قال له: لو كُشِف لك عن الأجرِ الذي أُعِدَّ لك لتمنيتَ أن تذهب الأخرى.

١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦/٣١١).
٢- تاريخ دمشق (٥٧/١٢٢).

وفي نصرةِ الدين هذا يقول أحمد بن منير مِن قصيدةٍ له:

يَا نُصْرَة الدّين الَّذِي عزمُهُ مِنْهُ تُرَجَّى نصْرَة الدِّينِ
وَابْن الَّذِي زَلْزَل مِنْ خَوْفِهِ مَا بَين أغْمَاتٍ إِلَى الصِّينِ[١]

وفي سنة اثنتين وستين وخمس مئة: استدعى أخاه قطب الدين من الموصل فقدم عليه بحمص ودخلوا جميعًا بلاد الإفرنج، ومرّوا بحصن الأكراد واكتسحوا نواحيه، ثمَّ فتحوا العريمة وصافيتا[٢].

وفي سنة ثلاث وستين وخمس مئة: كان ابن حسَّان صاحب منبج قد ساءت أفعاله، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه، ثمَّ توجه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها، ومدحه العماد بقصيدةٍ، منها:

بُشْرَى الممالك فتحُ قَلْعَةِ مَنْبج فلْيَهْنِ هَذَا النَّصْر كلَّ متوَّجِ
أُعطيتَ هَذَا الْفَتْحَ مِفتاحاً بِهِ فِي الْملك يَفْتَحُ كلَّ بَابٍ مُرْتَجِ
وافى يُبَشِّرُ بالفُتُوحِ وَرَاءه فانهضْ إِلَيْهَا بالجْيوشِ وعرِّجِ
أبشِرْ فبيتُ الْقُدسِ يَتْلُو منبِجاً ولَمَنبجٌ لسواه كالأُنْموذَجِ
مَا أعجزَتْكَ الشُّهْبُ فِي أبراجهَا طلبًا فَكيفَ خوارِجٌ فِي أبرُجِ
ولَقَدرُ مَنْ يعصيك أَحْقَر أَنْ يُرى أثر العبوس بِوَجْهِك المتبلجِ

١- الروضتين (١/٤٣٧).
٢- تاريخ ابن خلدون (٥/٢٩١)، و«مفرج الكروب» (١/١٥٢-١٥٣).

لَكِن تُهَذِّبُ مَن عَصَاك سياسةً ... فِي ضِمْنهَا تقْوِيمُ كلِّ مُعَوِّجِ
فانْهَدْ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدّسِ غَازياً ... وعَلى طرابُلُسٍ ونابُلُسٍ عُجِ
قدْ سِرْتِ فِي الْإِسْلَامِ أَحْسَنَ سيرةٍ ... مأثورةٍ وسَلَكْتَ أَوْضَح مَنْهَج
وَجَمِيع مَا استقريتَ من سُنَنِ الْهُدَى ... جدَّدَتَ مِنْهُ كلَّ رسمٍ مُنْهَجِ[1]

وفي سنة خمس وستين وخمس مئة: أول صفر منها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط من الديار المصرية.

قال أبو شامة: وبلغني من شِدَّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزلَ الفرنج على دمياط أنَّه قرئ عليه جُزء من حديثٍ كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم، فطلَبَ منه بعضُ طلبة الحديث أن يتبسَّم لتتم السلسلة، على ما عُرِف من عادةِ أهلِ الحديث، فغضب من ذلك وقال: «إنِّي لأستحيي مِن اللهِ تعالى أنْ يرَاني متبسمًا والمسلمونَ مُحاصَرونَ بالفرنج»[2].

وفي سنة ست وستين وخمس مئة: تسلم الرقة، واستولى على الخابور وسنجار، وملك نصيبين.

وفي سنة سبع وستين وخمس مئة: قدِم مليح بن لاون مقدَّم بلاد الأرمن والتجائه إلى الملك العادل نور الدين، وتطاوله بقوَّته على الرُّوم والأرمن.

١- المصدر السابق (٢/٣٢-٣٣).
٢- المصدر السابق (٢/١٤٣).

وكانت الدروب: أذنة، والمصيصة، وسيواس، يحميها كلب الرُّوم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون، فكسرهم وقتل وأسر، وساق لنور الدين من مقدمي الروم ثلاثين أسيرًا. فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين بن الشهرزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة، وما فتح من البلاد، ويقول فيه: «وقسطنطينية والقُدس يجريان إلى أمدِ الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظَّلامِ المدلهمّ على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام»[١].

فرحمة الله على الشهيد العادل، والملك الزاهد نور الدين، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

عُقِدَتْ بِنَصِرِكَ رايَةُ الإيْمانِ ... وَبَدَتْ لِعَصرِكَ آيَةُ الإحْسانِ

يا غالِبَ المِلوكِ وَصائِدَ الصِّـ ... ـيدِ اللُّيوثِ، وَفارِسَ الفُرْسانِ

يا سالِبَ التِّيجانِ من أَرْبابِها ... حُزْتَ الْفَخارَ على ذَوِي التِّيجانِ

مَحْمودٌ المحَمْودُ ما بَيْنَ الْوَرى ... في كُلِّ إقْليمٍ بِكُلِّ لِسانِ

يا واحِداً في الْفَضْلِ غَيْرُ مُشارَكٍ ... أَقْسَمْتُ مالَكَ في البْسَيطَةِ ثانِ

١- المصدر السابق (٢/٢٦٦).

أَحْلَى أَمانِيكَ الجِهادُ وإنَّهُ لَكَ مُؤْذِنٌ أَبَداً بِكُلِّ أمانِ
كَمْ بِكْرِ فتْحٍ وَلَّدَتْه ظُبَاكَ مِنْ حَرْبٍ لِقَمْعِ المشْرِكينَ عَوانِ
كَمْ وَقْعَةٍ لَكَ في الْفِرَنْج حَديثُها قَدْ سارَ في الآفاقِ، والْبُلْدانِ
كَمْ مُصْعَبٍ عَسِرِ الْمَقَادةِ قُدْتَهُ نَحْوَ الرَّدى بِخَزائم الخُذْلانِ
قَمَّصْتَ قَوْمَصَهُمْ رِداءً من رَدىً وَقرَنْتَ رَأسَ بِرَنْسِهِمْ بِسِنانِ
وَمَلَكْتَ رِقَّ مُلوكِهِمْ وَتَرَكْتَهُمْ بالْذُّلِّ في الأقيْاد والأسْجان
وَجَعَلْتَ في أَعْناقِهِمْ أَغْلالَهُمْ وَسَحْبَتهُم هوْناً على الأَذْقانِ
إذْ في السَّوابِغِ تُحْطَمُ السُّمْرُ القَنَا والْبيضُ تُخْضَبُ بالنَّجيعِ الْقاني
وعَلى غِناءِ الْمَشْرَفِيَةِ في الطُّلَى والْهامِ رَقْصُ عَوامِلِ المرَّانِ
وَكأَنَّ بَيْنَ النَّقْعِ لَمْعَ حَديدها نارٌ تَأَلَّقُ مِنْ خِلالِ دُخانِ
غَطَّى العَجاجُ بِهِ نُجومَ سَمائِهِ لِتَنُوبَ عَنها أَنْجُمُ الخَرْصانِ[1]

وفي سنة الثامنة وستين وخمس مئة: سار نور الدين محمود بن زنكي، فافتتح بهنسة وغيرها، ثم دخل الموصل، ودان له صاحب الروم[2].

١- خريدة القصر (٢/٥٧٣).
٢- قلادة النحر (٤/٣٠١).

وفاته ومراثيه

وفي السنة التي توفي فيها نور الدين أكثر فيها من الصدقات والأوقاف وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما كان فيه من الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخَرَاج، وما تحصَّل من قسمة الغَلَّات على قويم المنهاج.

وما كان يصل إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعث به إلى القاضي، فيبيعه ويعمر به المساجد المهجورة، ولا يتناول منه شيئًا، وأمر بإحصاء مساجد دمشق، فأُحصيت، فكانت مئة مسجد، فأوقف الأوقاف على جميعها[١].

قال ابن الجوزي: «وعزم على فتح بيت المقدس فوافته المنية»[٢].

وقال سبط ابن الجوزي: «كان في عزمه أن يفتح البيت المقدَّس، فعمل منبرًا وقِبْلة بجامع حلب على اسم القُدْس، فتوفي قبل الفتوح، فلمَّا ملك صلاح الدين البيت المقدس حمل المنبر إليه، وأبقى القِبْلة بجامع حلب»[٣].

وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكَّر وركب وجمَّل الموكب وكأن الفلَك بنيَّره

١- مرآة الزمان (٢١/٢٠٩-٢١٠).
٢- المنتظم (١٨/٢١٠).
٣- مرآة الزمان (٢١/٢١١).

جار، والطود الثابت يمرُّ مرَّ السحاب في وقار. وكأنَّه القمر في هالته، والقدر في جلالته، والبدر في دائرته، سائر بين سَيَّارته، ودخل الميدان والعظماء يُسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همَّام الدين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديمًا في أول دولته والي حلب، وقد جرَّب الدَّهر بحنكتهِ ولأشطُرِه حَلَب، فقال لنور الدين في كلامه عظة، لمن يغتر بأيامه: هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة! فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق، فإنَّ نور الدين لم يصل إلى الشهر، والهمام لم يصل إلى العام[1].

ومرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع وكان مهيبًا فما روجِع، ولما كان يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال قبض إلى رحمة الله تعالى عن ثمان وخمسين سنة، وله في الملك ثمان وعشرون سنة، وصلي عليه بجامع القلعة بدمشق، ودفن بها حتى حول إلى تربة بنيت له بباب المدرسة التي أنشأها للحنفية رحمه الله، وبل بالرحمة ثراه، وجعل الجنة مأواه.

وقد رثاه الشعراء بمراثٍ كثيرة، وما أحسن ما قال العماد:

١- الروضتين (٢/٣٠٨)، و«الكامل» (٩/٣٩٣).

عَجِبْتُ مِنَ الْمَوْتِ كَيْفَ اهْتَدَى إِلَى مَلِكٍ فِي سَجَايَا مَلَكْ
وَكَيْفَ ثَوَى الْفَلَكُ الْمُسْتَدِي رُ فِي الْأَرْضِ وَالْأَرْضُ وَسْطَ الْفَلَكْ

وقال حسان الشاعر الملقب بالعرقلة في مدرسة نور الدين حين دفن فيها:

وَمَدْرَسَةٍ سَيَدْرُسُ كُلُّ شَيْءٍ وَتَبْقَى فِي حِمَى عِلْمٍ وَنُسْكِ
تَضَوَّعَ ذِكْرُهَا شَرْقًا وَغَرْبًا بِنُورِ الدِّينِ مَحْمُودِ بْنِ زَنْكِي
يَقُولُ وَقَوْلُهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ بِغَيْرِ كِنَايَةٍ وَبِغَيْرِ شَكِّ
دِمَشْقٌ فِي الْمَدَائِنِ بَيْتُ مُلْكِي وَهَذِي فِي الْمَدَارِسِ بَيْتُ مِلْكِي[١]

وللعمادِ:

يَا مَلِكًا أَيَّامُه لم تَزَلْ لفَضْلِهِ فَاضِلةً فاخِرَهْ
غاضَتْ بحَارُ الجُود مُذْ غُيِّبتْ أنمُلُكُ الفائِضةُ الزَّاخِرهْ
مَلَكتْ دُنياك وخلَّفتها وسرتَ حَتَّى تملكَ الْآخِرَهْ[٢]

وقال أحمد بن منير:

أيا ملكَ الدُّنيا الحُلاحل والذي له الأرضُ دارٌ والبَرِيَّةُ أعْبُدُ
وليستْ بدعوى لا يُقام دليلُها ولكنَّه الحقُّ الذي ليس يُجْحَدُ

١- البداية والنهاية (١٦/٤٩٣).
٢- الروضتين (٢/٣٠٩).

أخو غَزَوَاتٍ كالعقودِ تناسَقَتْ ... تَحُلُّ بأجيادِ الجيادِ وتُعْقَدُ

لسانٌ بِذِكْر الله يكسو نهارَه ... بهاءً وجَفْنٌ في الدُّجى ليس يَرْقُدُ

وبَذْلٌ وعَدْلٌ اغرقا وتألَّقا ... فلا الوِرْدُ مثمودٌ ولا البابُ مُوْصَدُ

مرامٌ سمائيٌّ وحَزْمٌ مسدَّدٌ ... ورأيٌّ شهابيٌّ وعَزْمٌ مؤيَّدُ[١]

ولما توفي الملك العادل اجتمع الأمراء والمقدّمون وأهل الدولة بدمشق وبايعوا ابنه الملك الصالح إسماعيل وهو ابن إحدى عشرة سنة، وحلفوا له وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر، وخطب له هنالك، وضرب السكة باسمه، وقام بكفالته وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدّم، وأشار عليه القاضي كمال الدين الشهرزوريّ بأن يرجعوا في جميع أمورهم إلى صلاح الدين لئلا ينبذ طاعتهم فأعرضوا عن ذلك[٢].وبعد هذا صار الأمر إلى السلطان المظفر صلاح الدين، وتسلم الأمور وقاد البلاد، وسار بالعباد على نفس ما سار عليها الملك العادل نور الدين رحمهم الله جميعًا[٣].

١- مرآة الزمان (٢٢٢/٢١).

٢- تاريخ ابن خلدون (٢٩٧/٥).

٣- وبهذا تم ما أردت الحديث عنه من سيرة الملك العادل نور الدين، وقد جعلت من بعده بفضل الله وعونه سيرة الملك المظفر صلاح الدين رحم الله الجميع؛ ليتم بذلك العقد الثمين، والله الموفق المعين.

وكما قال أبو عبد الله المازني الحموي (ت ٦٩٧هـ) في «مفرج الكروب» (١٩٣/٢): «فرحم الله الملك الناصر صلاح الدين وقدّس روحه، فلم يؤيد الإسلام بعد الصحابة ﷺ برجل مثله

(مفكرة الفوائد)

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

ومثل نور الدين محمود بن زنكي -رحمة الله عليهما-، فهما جددا الإسلام بعد دروسه، وشيّدا بنيان التوحيد بعد طموسه، ثم أيّد الله الإسلام بعدهما بالملك الظاهر ركن الدين -بيبرس-، وكان أمره أعجب إذ جاء بعد أن استولى التتر على معظم البلاد الإسلامية، وأيس الناس أن لا انتعاش للملة، فبدّد شمل التتار، وحفظ البلاد الإسلامية، وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية».

مِمَّا صدر للمؤلِّف من الكُتب والأبحاثِ

* الغيرة بين خطاب الشَّرع وسلوك الناس. ط: دار اللؤلؤة.
* قاعدة بذكر ثلاثة أصول عورضت بها الشَّريعة. ط: دار اللؤلؤة.
* إبهاج الطالبين بقطوف من ألقاب من المحدثين. ط: دار اللؤلؤة.
* احترام العلماء وتوقيرهم (أهل الحديث أنموذجًا). ط: دار اللؤلؤة.
* لذة العلم والسماع عند المحدثين والعلماء. ط: دار اللؤلؤة.
* صور من جهاد العلماء. ط: الكتاب العالمي.
* معالم في رواية الحديث الضعيف والاستشهاد به. مجلة رواء.
* القصَّاص وموقف السلف منهم. مجلة رواء.
* شرح الأربعين التدبريَّة في مراتب أخذ القرآن. مركز تدبر.
* الإمام أحمد وكتابه المسند.

من الكتبِ التي رفعت على الشبكة ومواقع التواصل

* التعليق على رسالة الإلحاد للعلامة محمد الخضر الحسين.
* التبرج صوره أسبابه ومظاهره.
* شرح كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بذكر الصفات الثلاثة التي يحتاجها الداعية والمحتسب.
* تمام الفرحتين بتهذيب كتاب العيدين.

يصدر بعون الله

* مذكرة طالب العلم وآدابه.

* إعلام الأنام بأحكام الجنب في الإسلام.

* إسعاف اللبيث بصور مختصرة من علو الهمة عند أهل العلم وأصحاب الحديث.

* نجدة المستغيث بتقريب فتح المغيث بشرح ألفية الحديث.

العبير الشذي

في سيرة الملك العادل

نور الدين زنكي

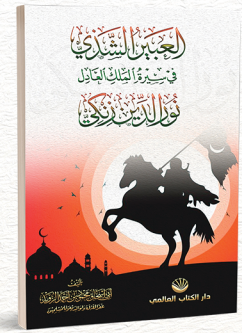

طالعت في ما تيسر لي في سير الملوك والحكام، ووجدت أنّ من خيرهم سيرةً، وأعظمهم صفةً الملك العادل نور الدين زنكي رحمه الله، فقد جمع الله له من الصفات أكملها، ومن المناقب أجلها، فهو العادل، والمجاهد، والأمير، والعالم، والزاهد، والعابد.

ورغبةً في بيان منزلة هذا الملك العادل رأيت أن أكتب في سيرته كتابًا مختصرًا يبين تلك المناقب، ويبرز تلك المعالم في شخصيته؛ طمعًا بأن يكون في الأمة من يستمسك بغرزه، ويسير على خطاه.

والله الموفق، وعليه التكلان.

دار الكتاب العالمي

9 786258 230826